

مصدر القرآن الكريم في رأي المستشرقين

عرض ودراسة ونقد

أ. د / محمد السيد راضي جبريل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ورحمة الله للعالمين محمد بن عبد الله النبي الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين... وبعد
فإن عيون التاريخ وهي ترقب - عبر الأزمان - ساحة الصراع بين الحق والباطل قد رصدت عداءً شديداً للإسلام وأهله، انطوت عليه صدور أحزاب الكفر وجند الشيطان، وقد حمل هذا العداء السيف أحياناً، ونفت سموم الحقد تشكيكاً وإضلالاً، وتهجماً وتليسياً أحياناً أخرى.

وتتعاقب دورات الصراع - تتخللها دروس للمؤمنين وابتلاءات - لتشهد مصارع الباطل، واندحار حزبه سواء في مجال السيف والقتال:
﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦] ﴿ وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [٧١] إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿ ٧٣ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]. أو في مجال الحججة والبرهان: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [١٨]

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ [الأنبياء: ١٨]

لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ [الشورى: ١٦].

ومنذ زمن بعيد - وفي مجال حرب الفكرة والكلمة - لبست جموع من أعداء الإسلام من خارج مجتمعه ومن داخله - في إطار التلبيس - مسوح العلم، وتسربلوا بلباس ظاهره الحيدة والإنصاف، وباطنه الكفر والتعصب، وراحوا يشنون أعنف الغارات على دين الإسلام في عقيدته وتشريعاته، وآدابه وأخلاقه، من خلال الطعن في كتابه الذي هو دستور ذلك كله، وتنوعت الوسائل في هذا الطعن بتنوع الطاعنين الذين اتحدت قواهم، وحاولوا جاهدين تفرغ الإسلام من مضمونه العقدي والتشريعي عن طريق غزو العقل الإسلامي والفكر الإسلامي فيما اصطلح الباحثون على تسميته بالتغريب.

يقول الأستاذ أنور الجندي^(١): «ولقد حاربت فكرنا قوى عديدة: ١- الفكر الماسوني أساساً. ٢- الفكر التبشيري التنصيري في أثنائه المختلفة، وآخرها الحوار. ٣- الفكر الاستشراقي بمراحله الثلاث: الغربي، والماركسي، والصهيوني. ٤- فكر التغريب الذي يقوده المغربون الجدد (بدائل الاستعمار).. إلى آخره».

(١) في مقال له بعنوان: (كشف مخططات التغريب) نشرته جريدة النور في القاهرة، العدد: ٣٣٧، الأربعاء ٥ من المحرم سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ١٧ من أغسطس سنة ١٩٨٨ م.

ويعيننا في هذا المقام من بين تلك القوى: الفكر الاستشراقي الذي تناول القرآن بالتشكيك: بدءاً بمصدره ومروراً بقضاياه في العقيدة والتشريع، وانتهاءً بمنهجه في تربية أتباعه، وصياغة حياتهم.

إن من يملك أدنى قدر من الإنصاف لا يستطيع أن ينكر أو يغض الطرف عن تصاعد حملة العداة على الإسلام وكتابه القرآن تصاعداً تشابك فيه الجانب الفكري مع الجانب المادي.

ولقد تمثل ذلك في ممارسات شهدها العالم في الآونة الأخيرة، كان مبعثها الكراهية العمياء والحقد الدفين ليس للمسلمين أفراداً فحسب، ولكن للإسلام ديناً، وللقرآن دستوراً لهذا الدين.

لقد انثجت الذرائع الباطلة، والحجج الواهية التي ثبت زيفها على مرأى ومسمع من الدنيا كلها، انثجت هذه الذرائع للانتقام من المسلمين في غير جريمة ولا سبب إلا أنهم يقولون: ربنا الله، وديننا الإسلام، ونبينا خاتم الرسل محمد -صلى الله عليه وسلم- فأريققت من أجل ذلك دماؤهم، وانتهبت أموالهم، وديست كرامتهم، وانتهكت أعراضهم في سجون ومعتقلات أعدت لذلك في بلاد المسلمين، وفي غيرها من أقاصي الأرض بدعاوى زائفة وُهم باطلة هم منها براء.

ولا أدل على تلك الكراهية الصماء من أن العدوان تعدى البشر إلى المقدسات من هدم وتحريق للمساجد التي يذكر فيها اسم الله، ثم ظهر العداة عارياً مما يستر أي عورة عندما استهدف هؤلاء الأعداء كتاب الله ذاته (القرآن الكريم)، فتناولوه بالإهانة والتدنيس بالقاذورات -شلت أيديهم- فلقد بلغ

الغيظ حد أنهم ليس فقط لم يطبقوا القرآن فكراً ومنهجاً، ولكنهم كذلك لم يطبقوه صحفاً وسطوراً.

ويزداد الأمر بشاعة بمعرفة أن هذه الأفعال ليست تصرفات طائشة من أفراد هنا أو هناك، ولكنها تمثل منهجاً يملئ، وينفذ بقصد وتعمد.

في وسط ذلك كله، وفي تلك الظروف التي يمر بها الإسلام ويحيها المسلمون، حق على كل مسلم أنعم الله عليه بنعمة الإسلام عامة، والعلماء منهم خاصة أن يهبوا بما يملكون، وبما يحسنون من أدوات للدفاع عن هذا الدين وأن يكشفوا زيف الدعاوى المضللة التي تشكك في القرآن، وأن يعرضوا - رغم الجراح - على الدنيا منهج الخير، وأن يضيئوا للعالم مصابيح الهدى فذلك واجبهم وقدرهم، وأن يردوا عن دينهم ما يراد إصاقه به من زيف وبهتان، وأن يصبروا على ذلك كله ويحتسبوه عند الله تعالى، وأن يستصحبوا في ذلك منطلق العالمية في رسالتهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لقد قيض الله - سبحانه وتعالى - في هذا الصدد - تحقيقاً لوعده سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] - من الأسباب البشرية من عباده المؤمنين من زاد ويزود عن حياض هذا الدين الحنيف قديماً وحديثاً، فكشفوا كل زيف، ودحروا كل هجوم، وسفهوا كل باطل، وسوف يظل الأمر كذلك - بتأييد الله إياهم - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ولقد كانت المملكة العربية السعودية سبابة في هذا المضمار إلى خدمة كتاب الله تعالى والذود عن حياضه، وذلك عن طريق ذلك الصرح الإسلامي الشامخ،

وهو (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة) الذي قام ويقوم بفضل من الله تعالى بخدمة الكتاب الكريم: طباعة للمصحف، وتفسيراً للقرآن العظيم، وترجمة لمعانيه، وإثراءً للدراسات القرآنية في شتى مجالاتها.

وفي سياق جهود هذا الصرح الضخم تأتي هذه الندوة التي دعا المجمع إلى عقدها تحت عنوان: «القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية» شاملة العديد من المحاور التي تضمنت موضوعات تصب كلها في بيان موقف الاستشراق ومسلكه تجاه القرآن الكريم.

وتلبية لدعوة كريمة من أمانة المجمع يأتي هذا البحث في «مصدر القرآن الكريم في رأي المستشرقين عرض ودراسة ونقد» مشاركة متواضعة في فعاليات هذه الندوة تثبيتاً للمؤمنين، وردا على دعاوى المبطلين.

وصلب الموضوع في هذا البحث يتناول: موقف المستشرقين من مصدر القرآن الكريم، ويتضمن الحديث فيه عرض دعاواهم أن مصدر القرآن هو: النبي-صلى الله عليه وسلم- نفسه، أو البيئة الجاهلية، أو الحنفاء، أو اليهودية، أو النصرانية، ورد تلك الدعاوى وتفنيدها.

ولكن يسبق ذلك كله لتمام الفائدة، ولحاجة البحث: تمهيد يتعلق ببيان موقع القرآن الكريم من رسالة الإسلام، ومبحث: يبين موقف طوائف المكذبين للنبي-صلى الله عليه وسلم- من القرآن في عصر النبوة، وهم: كفار قريش، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى من جهة أخرى.

كما يلحق بالصلب بمبحث: يجيب عن تساؤل: هل جاء المستشرقون بجديد في محاولة نفي صبغة الوحي الإلهي عن القرآن الكريم؟ ثم الخاتمة:

وتتضمن الأدلة القاطعة من العقل والنقل على كون القرآن الكريم من عند الله
- سبحانه وتعالى - وفي نهايتها: خلاصة البحث ونتائجه.

أسأل الله العليّ القدير أن يوفّقني لإتمام هذا البحث على ما يحبه ويرضاه
سبحانه، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به والمسلمين، وأن يجزل
لي المثوبة من فضله، وأن يتجاوز عما يعرض فيه من التقصير أو الخطأ الذي
هو من لوازم البشر، والله من وراء القصد، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على
سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والآن إلى معالجة الموضوع.

تمهيد في: موقع القرآن الكريم من رسالة الإسلام

من بداهة القول: أن القرآن الكريم يقع من رسالة الإسلام موقع القلب النابض بعقيدته وتشريعاته، وآدابه، وأخلاقه، لا يختلف اثنان على هذه الحقيقة.

ولقد علم المستشرقون ذلك، فجعلوا القرآن الكريم موضوعاً لدراساتهم المتعددة، أيا كانت بواعث هذه الدراسات وأهدافها^(١)، ومن جهة أخرى عمل بعض المنافقين مدخولي النية على استغلال هذه الحقيقة الناطقة بمكانة القرآن عند المسلمين، فحاولوا إهدار السنة المطهرة، وإلغاء دورها في كونها المبينة للقرآن كما نص على ذلك القرآن ذاته في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فادّعوا كاذبين أنه لا حاجة لغير القرآن، وأنه وحده عليه المعول وفيه الكفاية؛ خطوة يهدفون من ورائها في النهاية إلى إهدار القرآن ذاته.

وقد حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذا الصنف عندما قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل ينشي شعبانا على أريكته يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه»^(٢).

وهدف الفريقين في النهاية واحد هو: النيل من القرآن ومعه النيل من

(١) وإن كان أغلب تلك الدراسات تهدف إلى التشكيك في القرآن؛ لإهدار حججه كما سيأتي.

(٢) الحديث أخرجه أحمد عن المقدم بن معد يكرب بإسناد صحيح، رجاله ثقات برقم ١٧١٧٤، كما قرر

محققو المسند: ٢٨ / ٤١٠، ٤١١.

الإسلام، ولكن أنى لهم ذلك: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

من أجل ذلك جاء هذا المبحث حول: موقع القرآن الكريم من رسالة
الإسلام، وهو يتناول أمرين: الأول: تقرير القرآن حقيقة رسالة الإسلام وإلهية
مصدرها، والثاني: نشر هذه الرسالة تحقيقاً لعالميتها التي ينطق بها قول الله تعالى
مخاطباً رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سأ: ٢٨].

وفيما يلي إيضاح لكل من الأمرين:

**أولاً: القرآن الكريم يقرر حقيقة رسالة النبي-صلى الله
عليه وسلم-:**

بعث الله رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- برسالة الإسلام التي جاءت
لتنم صرح الرسالات، ففي الحديث: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل
رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس
يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلاً وُضِعَت هذه اللبنة؟ قال: فأنا
اللبنة، وأنا خاتم النبيين»^(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه من رواية أبي هريرة -رضي الله عنه-: ك / المناقب، ب / خاتم النبيين -صلى
الله عليه وسلم- ح / ٣٥٣٥.

جاء النبي-صلى الله عليه وسلم- فدعا بدعوة الأنبياء من قبله، وهي دعوة واحدة، أصول الاعتقاد فيها: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأساس التشريع فيها: الطهارة والعفاف في الأخلاق، والاستقامة والقصد في السلوك، والعدل والصفة في المعاملات، والنصح للأمة في الولايات: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

جاءت رسالة الإسلام على حين فترة من الرسل كان العالم قد غرق في جاهلية مظلمة: طمست فيها معالم الخير، وأطفئت فيها مصابيح الفكر، وعطلت فيها مواهب العقل، مما لا نجد معه تعبيراً عن المنهج الذي ساد حياة البشرية قبل الإسلام أصدق من وصف القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

فانبعث أشقياء القوم من عباد الأصنام، والطغاة وأرباب الشهوات يعارضون النبي-صلى الله عليه وسلم- ويكذبونه ويصدون عن دينه، ويعملون على وأد دعوته.

ومضت في النبي-صلى الله عليه وسلم- سنة الله- سبحانه وتعالى- في تأييد رسله وتصديقهم بالمعجزات، لكنه- سبحانه- إذا كان قد أيد رسله السابقين بمعجزات حسية يراها المشاهدون، ويعاينها الحاضرون: كنانة صالح

وعصا موسى ونحوهما، فإنه تعالى قد جعل المعجزة الكبرى التي قامت شاهداً على صدق النبي-صلى الله عليه وسلم- وصدق ما دعا إليه كتاباً مباركاً، قرآناً عربياً، يخاطب الأجيال في كل عصر ويقرؤه الناس في كل حين.

وفي هذا يقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١).

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان العرب الذين اختارهم مهدياً لخاتم رسالاته في وقت بلغت فيه لغتهم من الفصاحة، وروعة البلاغة، وعظمة البيان ما لم تبلغه لغة في الأرض على لسان أهلها في عصر من العصور، ثم إنه طالب المعارضين المنكرين- في تحدٍّ أثبتته القرآن في آياته- أن يأتوا بمثل هذا القرآن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ وَبَلَّ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

أو بعشر سور من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٣) [هود: ١٣].

أو بسورة من مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه: ك / فضائل القرآن، ب / كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، ح / ٤٩٨١.

لقد واجههم القرآن بهذا التحدي فما كان منهم إلا العجز المطبق
الناطق بصدق كتاب الله وصدق ما جاء به -صلى الله عليه وسلم-.
على أننا ينبغي أن نؤكد حقيقة ينبغي ألا تغيب عن الأذهان في شأن
معجزة القرآن الكريم، وهي: أن هذه المعجزة قد حملت في ذات الوقت المنهج
الذي يراد بناء أمة الإسلام على أساسه، والهداية إلى التي هي أقوم في شتى
مجالات الحياة.

يقول الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله تعالى - في هذا الصدد: ((وقد
أنزله الله لأمرين عظيمين، أحدهما: أن يكون معجزة دالة على صدق الرسول
في دعوة الرسالة والتبليغ عنه سبحانه، وبمقتضى هذا أنزله يحمل في أسلوبه
ومعانيه، وتشريعه ومعارفه عناصر الإعجاز، وقد أمر رسوله أن يتحدى به القوم
فتحداهم حتى ظهر عجزهم وتمت الحجة عليهم... وقد كانت معجزات الرسل
قبله خوارق حسية لا عقلية يجول فيها العقل ويصول، ويعمل فيها الذهن
بالتفكير والتدبر، وكانت منقرضة لا دائمة؛ وذلك لأن رسالتهم لم تكن عامة
لأهل زمنهم ولا خالدة.

الأمر الثاني: أن يكون منبع هداية وإرشاد، ومصدر تشريع وأحكام،
يجب اتباعه والرجوع إليه، ولا يكفي في إثبات أنه واجب الاتباع مجرد ثبوت أنه
معجز، بل لا بد مع هذا من ملاحظة أن إعجازه دل على أنه من عند الله،
وقد احتوى على الأمر الإلهي الصريح بوجوب اتباعه، والعمل بما تضمنه من
الأحكام في غير موضع، وبغير أسلوب واحد، فقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ
إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال

سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقد انعقد إجماع المسلمين على أن القرآن الكريم هو أساس الدين والشريعة حتى صار ذلك عندهم مما علم من الدين بالضرورة^(١). ولعلنا لا نجانب الفهم الصحيح إذا قلنا: إن ما سبق من الآيات يقرر ترابطاً لا ينفك بين إعجاز القرآن وهدايته، هو ترابط ما بين المقدمات والنتائج، فغرض الإعجاز مقدمة نتيجته الهداية، أو إن شئت فقل: إن غرض الإعجاز أمر يسبق في التقرير غرض الهداية؛ لأن الناس إذا دعوا إلى العمل بمنهج ما فلا بد من قناعتهم بسلامة مصدر هذا المنهج حتى ينقادوا له على بصيرة وطمأنينة، والإعجاز - في هذا المجال - قد أدى الغرض فأوفى، فبه علم أن القرآن كلام رب الناس وخالقهم، والأعلم بما يصلح لهم ويصلحهم. وبهذا يتضح موقع القرآن الكريم من رسالة الإسلام تقريراً واحتجاجاً، فهو الدليل الحق القاطع على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - وصدق رسالته العامة الخاتمة.

ثانياً: القرآن الكريم ونشر رسالة الإسلام

وبنفس خصائص الصدق حمل القرآن الكريم لواء نشر دعوة الإسلام، لما سار به المسلمون وقت الشدة في أوائل سني الدعوة يلتمسون الأمن والتمكين، أو بعد ذلك لما انطلقوا فاتحين لأقطار الأرض بالهدى والخير والعمران والعدل.

(١) الإسلام عقيدة وشريعة: ص ٤٩٨ - ٥٠٠ الإمام محمود شلتوت، دار الشروق، ط / السادسة ١٩٧٢م.

(أ) ففي وقت الشدة والتماس الأمن والتمكين يبرز لنا في هذا الصدد مثالان، كان القرآن فيهما بمجرد سماعه سبباً مباشراً في إسلام من سمعوه:

أول هذين المثالين: تجلّى في حوار جعفر بن أبي طالب - معبراً عن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة - مع ملكها النجاشي وأساقفته، لما أرسلت قريش لاستعادة هؤلاء المهاجرين عنوة، وأوعزت إلى رسولها إلى النجاشي عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة قبل إسلامهما أن يغريا النجاشي بالهدايا، ويثيراه بالدهس والوقيعه ليسلم المهاجرين إليهما، وأبى النجاشي ذلك قبل أن يسمع من المسلمين، فتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب، فقال: ((أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا... فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك.. ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه صدرّاً من (كهيعص) فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته - أي بللتها دموعه - وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به

عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون -
أي لا يكيدهم أحد-»^(١).

وفي النجاشي وأساقفته وانصياهم للحق نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا
سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا
عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾
[المائدة: ٨٣] ^(٢).

ثاني هذين المثالين: تجلّى في قصة إسلام سعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير:

ومجمل ما جاء فيها على ما حدّث ابن إسحاق في السيرة عن عبيد الله
ابن المغيرة بن معيقب وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن
مصعب بن عمير جاء مبعوثاً من النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة
ليعلّم أهلها القرآن، فنزل على أسعد بن زرارة، الذي خرج به إلى حائط -أي
بستان- من حوائط بني ظفر على بئر منها، واجتمع إليه رجال ممن أسلموا
يعلمهم القرآن، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير يومئذ سيدا قومهما، وكلاهما
مشرك على دين قومه، فلما سمعا بمصعب أرسل سعد بن معاذ أسيداً ليمنعه
ويزجره، فلما رأى أسعد بن زرارة أسيد بن الحضير مقبلاً قال لمصعب: هذا

(١) حوار جعفر بن أبي طالب مع النجاشي أخرجه -بأوفى مما ذكرناه- أحمد: من حديث أبي بكر بن عبد
الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم.
قال محققو المسند: إسناده حسن، رجاله ثقات، رجال الشيخين غير محمد بن إسحاق -وهو أحد رجال
الإسناد- فقد روى له مسلم متابعه، وهو صدوق مدلس، لكنه صرح هنا بالتحديث فانتفت شبهة
تدليسه.. والحديث في السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق بهذا الإسناد، راجع المسند: ٢/ ٢٦٣ -
٢٦٩ ط مؤسسة الرسالة.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ص ١٥٢.

سيد قومه، وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف أسيد عليهما يشتمهما، وقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا، وهددهما بالقتل، فقال له مصعب: أو تجلس وتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، فكلمه مصعب، وقرأ عليه القرآن، فلما سمعه قال: ما أحسن هذا وما أجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، ففعل، ثم عاد إلى سعد بن معاذ، فأنكر عليه سعد موقفه، وذهب بنفسه ليفعل ما لم يفعله أسيد، فكلمه مصعب بمثل ما كلم به أسيداً، وقرأ عليه القرآن فأسلم^(١).

(ب) أما في الفتوحات، وما شهدته من وقائع دخول الناس في الإسلام عند سماعهم القرآن من المسلمين فالأمثلة أكثر من أن تحصى عدا، ولا يتسع المقام لذكرها، ويكفيها للدلالة على ذلك أن الدافع لخليفة المسلمين عثمان -رضي الله عنه- إلى جمع القرآن على حرف قريش؛ لدرء الاختلاف في قراءته، كان لكثرة الداخلين في الإسلام من غير العرب من الأقطار المفتوحة الذين لا يتصور إكراههم على حفظ القرآن والشغف به وقراءته، فقد أسلموا لما عرض عليهم الإسلام وسمعوا القرآن، الذي أخذ بمجامع قلوبهم لما له من أثر لا يقاوم.

وخلاصة القول: أن القرآن يقع من رسالة الإسلام - كما قدمنا - موقع القلب من البدن، والروح من الجسد، سواء كان ذلك في كونه حجة لهذا الدين العظيم، أو حاملاً للواء نشره في العالمين.

(١) راجع: السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٥٨، ٥٩ - مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٤م.

المبحث الأول

موقف طوائف المكذبين للنبي - صلى الله عليه وسلم -

من القرآن (في عصر النبوة)

تمهيد: حديث القرآن عن مصدره:

لقد حسم القرآن الكريم في كثير من آياته قضية مصدره، وأنه بلفظه ومعناه وحي من عند الله - سبحانه وتعالى - وليس للنبي - صلى الله عليه وسلم - فيه إلا: التلقي الواضح، والبلاغ الأمين، والبيان الشافي، فإذا قال معاند: تلك مجرد دعوى، قلنا: إنها صادقة في ذاتها صدقاً لا يتطرق إليه أدنى شك، ولم يقدّم الدليل على خلاف ذلك، وفصل القول في القضية: إعجاز هذا الكتاب الكريم، وسيأتي لذلك حديث في ختام البحث إن شاء الله تعالى، عند عرض أدلة العقل والنقل على كون القرآن من عند الله - عز وجل -.

ولكننا نبادر هنا: فنسوق بعض الآيات شواهد لذلك من القرآن على سبيل التمثيل لا الحصر: ففي سورة آل عمران يخبر الله تعالى بأنه الموحى لما نزل على أنبيائه من كتب، وفي مقدمة ذلك القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ٢ - ٤].

وفي سورة الأنعام أمر للنبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يعلن هذه الحقيقة تصريحاً: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ ۖ وَمَنْ بَلَغَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩].

وفي سورة النساء يؤكد الله تعالى حقيقة أنه منزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا
إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء: ١٥].

ويتكرر تقرير هذه الحقيقة في أكثر سور القرآن من أوله إلى آخره، فيما
يمكن أن نعهده نوعاً من التذكير الدائم لقارئ القرآن وسامعه أنه يعيش مع وحي
الله تعالى المنزل على خاتم رسله، وهذه طائفة من تلك الآيات: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢] ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا
عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَحْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ
خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾﴾ [طه: ١ - ٤] ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ
مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ
اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ١ - ٢] ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ
فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧].

ويطول بنا المقام إذا نحن حاولنا استقصاء مواضع إخبار القرآن بهذه
الحقيقة، وتقديره لها وتأكيدها.

وعلى الرغم من ذلك: فإن طوائف المكذبين من الكفار الوثنيين ومن
على شاكلتهم من جهة، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى من جهة أخرى
قد وقفت من القرآن وني الإسلام موقف العداء الذي اتخذ التكذيب والاحود
والمكابرة وسائل للصد عن دين الإسلام، وفيما يلي بيان لموقف كل فريق:

أولاً: موقف كفار قريش ومن تبعهم من القرآن الكريم:

لقد وقف كفار قريش من أول الأمر موقف العداوة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحتى يوهموا غيرهم أنهم على شيء، زعموا أن القرآن الذي يُدعون إلى الإيمان به ليس وحياً من عند الله، بل هو كذب واختلاق.

ولقد اضطربت أحوالهم في ذلك اضطراباً شديداً، فتارة يزعمون أن القرآن كلام مفترى اختلقه النبي-صلى الله عليه وسلم- من عند نفسه:

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِمُفْتَرَىٰ ۚ ﴾ [سبأ: ٤٣].

وتارة يقولون: إن النبي-صلى الله عليه وسلم- استعان في القرآن بآخرين، أو أن هذا القرآن أساطير الأولين أمليت عليه فدونها، وراح يتلوها على الناس: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ لِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۚ ﴾ [الفرقان: ٤ - ٥].

على أن المتأمل في موقفهم هذا من خلال ما حكاه القرآن من مقولاتهم، وسطره التاريخ عنهم يتبين في هذا الموقف معالم ثلاثة تنطق بجزئهم، وضلالهم، وكذبهم، وفي النهاية إصرارهم على الكفر.

أول هذه المعالم: التخط الذي يكشف عن جهلهم وحيرتهم وظلام أنفسهم.

وهم في هذا المجال: تارة يسوقون التهم جزافاً، ففي آية واحدة يقص الله تعالى من مقولاتهم صوراً متعددة من الاتهامات، لا يركنون إلى واحد منها؛ لسبب بديهي هو: أنه ليس شيء منها يصدق على القرآن: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمِ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥].

وتارة تكون حقيقة كون القرآن وحياً أثقل من أن ينكروها، فيصرفون اتهامهم عن القرآن إلى من أنزل عليه، فيتضمن كلامهم الإقرار بأن القرآن مُنزلٌ، ولكنه نزل على من ليس أهلاً لذلك؛ لفقره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١].

وتارة يقرون بصدق المنزل وأهلية المنزل عليه، ولكنهم ينكرون كيفية إنزاله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].
وتارة أخرى يُعييهم الاعتراض فيطلبون قرآناً غيره: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥].

وذلك كله ينطق بتخطهم في إنكار حق لا يجدون وجهاً لإنكاره، أو دليلاً على عدم صحته.

المعلم الثاني من معالم موقف الكفار من القرآن: التكلف والتعسف لتسويغ موقفهم المكذب للقرآن:

وذلك يتجلى واضحاً في حيرة بعض فصحاءهم عندما استمع إلى القرآن فلم يجد أحسن منه كلاماً، وأفصح منه لفظاً، وأرقى منه فكراً، فعاد إلى قومه بهذا الرأي في القرآن، فنهروه ولم يرضوا منه إلا أن يقول في القرآن قولاً يناسب ما هم عليه من كفر وتكذيب به.

وهذا ما جاء مفصلاً في حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي-صلى الله عليه وسلم- فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقى له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً كثيراً، قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبّله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز، ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يآثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾^(١).

وتمام ما نزل من القرآن في هذا الرجل قول الله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرک: ك / التفسير، ب / تفسير سورة المدثر ٢ / ٥٠٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، وأقره الذهبي في التلخيص.

شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا
 إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ
 ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ
 عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
 يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ [المدثر: ١١ - ٢٥].

والآيات الكريمة تصور مدى المعاناة في تقرير باطل يصادم الحق،
 فهذا الكافر يكذب ذهنه ويعتصر قريحته، ويقطب جبينه، وهو يعاني ميلاداً
 عسيراً لفكرة يعيب بها القرآن الكريم فلا يجد شيئاً من ذلك، ويتصاعد ما
 به فيعبس وجهه، ويتغير لونه، ولا ينتهي إلى شيء فيه مقنع، وبدلاً من
 قبول الحق يدبر عن ذلك، ويقول في القرآن قولاً هو في قرارة نفسه لا
 يصدقه: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ ﴿٢٤﴾ ولكنه التكلف للكفر،
 والانتصار للباطل!

المعلم الثالث: الإصرار على الكفر بعد ظهور الحق وغلبة

حجته:

وذلك يتمثل في رفض الإذعان للحق في الإيمان بالقرآن عناداً
 واستكباراً، بل دفعهم العناد إلى رفض الإيمان بأي وحي قبل القرآن:
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾
 [سبأ: ٣١].

لقد كان الكفار يتواصون فيما بينهم بعدم الاستماع إلى القرآن، والتشويش على من يتلوه؛ خشية من أن يتأثر سامعوه فتنهار مقاومتهم لهذا الحق بحجته الصادقة، وبرهانه الناصح: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهكذا تقلب موقف كفار قريش من القرآن في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين: اتهام باطل لا يستند إلى دليل، وتخطب بين دعاوى لا يصح منها شيء، ومكابرة وإصرار على الكفر رغم وضوح الحق، كل ذلك والقرآن يقذف بالحجة تلو الحجة، والبرهان إثر البرهان في وجوه هؤلاء الأفاكين، ومن قال بقولهم ولف لفهم إلى يوم الدين.

ثانياً: موقف أهل الكتاب من اليهود والنصارى من القرآن

الكريم:

يختلف موقف هؤلاء عن سابقهم من الكفار، فالجرم في جانبهم أفدح، والضلال في موقفهم أوضح؛ لأنهم أهل كتاب، عرفوا الحق فأنكروه بغياً وحسداً من عند أنفسهم أن لم تكن فيهم النبوة، على الرغم من أن كتبهم حدثتهم بصدق محمد . صلى الله عليه وسلم . قبل أن يبعث أو يأتي زمانه.

لقد جاءت آيات القرآن الكريم تسجل هذه الحقائق، وتصف هؤلاء المعاندين الجاحدين بما يستحقون: قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ [البقرة: ١٠١].

وقال -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٤٦﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال -عز وجل-: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ [الأنعام: ١١٤].

ولقد قصت السيرة علينا الكثير من نبا هؤلاء المعاندين، ومن أبرز ما ذكرته قصة حبي بن أخطب وأخيه أبي ياسر، قصتها أم المؤمنين صفية بنت حبي بن أخطب -رضي الله عنها- قالت: «كنت أحبّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حبي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين^(١) قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالأين^(٢) كسلانين

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. (لسان العرب): مادة: ((غلس)).

(٢) كلّ الرجل من المشي يكلّ كلا وكلالاً وكلالاً: إذا أعيا وتعب، وكلّ السيف: لم يقطع. (لسان العرب): مادة: ((كل)).

ساقطين يمشيان الهويني، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حبي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت»^(١).

وفي المقابل سجل القرآن موقف الفريق الذي عرف الحق من هؤلاء فاتبعه، قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَإِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [التقصص: ٥٢-٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧].

ولعل من أبرز الأمثلة لهذا الفريق مخيريق الذي يروي ابن إسحاق قصته فيقول: «(وكان من حديث مخيريق، وكان حبراً عالماً، وكان رجلاً غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بصفته، وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد، وكان يوم أحد يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأحد، وعهد

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١١٩/٢.

إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد -صلى الله عليه وسلم- يصنع فيها ما أراه الله، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم فيما بلغني- يقول: مخيريق خير يهود، وقبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمواله، فعامة صدقات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة منها^(١).

وفي سياق تقرير وشرح بشارة التوراة بالنبى -صلى الله عليه وسلم- وكونه النبى المنتظر يذكر الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي المثالين السابقين في نهاية عشرة أوجه لإحدى بشارات التوراة بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ثم يعلق قائلاً: «فتلك عشرة كاملة»^(٢).

هؤلاء الذين عرفوا الحق من أهل الكتاب فاتبعوه كانوا قلة إذا ما قيسوا بالذين عرفوا الحق فجحدهوه، وهو ما يتبادر إلى الأذهان عند ذكر موقف أهل الكتاب من القرآن، وقد علل القرآن نفسه لهذا الموقف - خاصة اليهود - بأنه الحسد البغيض للنبى -صلى الله عليه وسلم- لما أنعم الله عليه بالرسالة وهو الحسد الذي دفعهم إلى مخالفة كفار قريش على مستوى السيف قتالاً، كما حدث منهم في غزوة الأحزاب، وعلى مستوى شهادة الزور مقالاً، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ١١٩ .

(٢) إظهار الحق: ٤ / ١١٢٨، طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة

العربية السعودية ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م.

الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ
فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ
النَّاسَ نَفِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ
فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

[النساء: ٥١ - ٥٥].

فغن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال: ((قدم حيي بن أخطب وكعب
ابن الأشرف مكة على قريش، فحالفوهم على قتال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فقالوا لهم: أنتم أهل العلم القديم والكتاب الأول، فأخبرونا عنا وعن
محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ قالوا: نحن ننحر الكوماء - يعني الناقة المرتفعة
السنام - ونسقي اللبن على الماء، ونفك العناة - الأسارى - ونسقي الحجيج،
ونصل الأرحام، قالوا: فما محمد؟ قالوا: صنبور - يعني لا عقب له - قطع
أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار، قالوا: بل أنتم خير منه وأهدى سبيلاً،
فأنزل الله - عز وجل -: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ
يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ وَالظَّلْغُوتِ ﴾ (الآية) (١).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٠/١١) برقم ١١٦٤٥ وذكره الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) برقم ١٠٩٣١
من كتاب التفسير، وقال: ((وفيه يونس بن سليمان الجمال، ولم أعرفه، وبقيه رجاله رجال الصحيح)).

المبحث الثاني

موقف المستشرقين من مصدر القرآن الكريم

تمهيد: لماذا ركز المستشرقون هجومهم على مصدر

القرآن الكريم؟

إذا استدعينا ما قلناه في المقدمة عن الحرب الفكرية الضارية التي شنها على الإسلام أعداؤه من أحزاب الكفر، وكذلك ما ذكرناه في التمهيد: عن موقع القرآن الكريم من الإسلام في أمر تقرير حقيقته، وحمل لواء نشره، فإن الجواب على السؤال المطروح هنا يكون ميسوراً.

وبوضوح نقول: لقد ركز المستشرقون - في حربهم على الإسلام - هجومهم على القرآن؛ لأنه معجزة هذا الدين، ومنهجه في العقيدة والتشريع - كما ذكرنا - فإن نجحوا في النيل من القرآن - ولن يفعلوا - فقد نالوا من الإسلام.

واختص هؤلاء في الهجوم مصدر القرآن بغرض إهدار قدسية كونه وحيماً معصوماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حتى يصبح في خطوة أولى نصاً قابلاً للنقد في محتواه، وفي خطوة أخرى يطرح ادعاء قصور هذا المحتوى، وعدم ملاءمته لمقتضيات الحياة وتطورها، بل مصادمته لها، حتى يتم لهم ما أرادوا من الطعن في هذا الدين القيم الذي ختمت برسالته الرسالات، وهذا الكتاب العظيم الذي نزل مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه.

وهذا المبحث الذي يمثل لب الموضوع وجوهره يعالج هذه القضية، فيعرض دعاوى القوم هنا، ويردها ويفندها وذلك في مسائل يأتي تفصيلها فيما بعد، لكن قبل ذلك نؤكد أن باعث المستشرقين وهدفهم في نقطة بعنوان:

المنطلق والغاية:

يتظاهر المستشرقون بالتجرد في البحث العلمي عندما يشككون في القرآن، وينطلقون من هذه القاعدة، وهدفهم إنكار أن يكون القرآن وحياً إلهياً، وإثبات أنه كلام بشري، أنشأه محمد -صلى الله عليه وسلم- أو انتحله عن غيره.

لقد جعل المستشرقون هذا الأمر محور بحثهم، ولقد بلغ من تنكرهم لقواعد البحث العلمي في هذا المجال أنهم لم يجعلوا ما يهدفون إلى تقريره فرضية علمية يعملون على إثباتها، ولكنهم جعلوه أمراً واقعاً يلتمسون له التعليل والتفسير، وما نسوقه هنا ليس كلاماً مرسلأً، ولكن يؤكده أن واحداً من أهم أعمال المستشرقين في دراستهم للإسلام وعلومه، وهو دائرة المعارف الإسلامية عند مادة القرآن الكريم انطلق في نفي الصبغة الإلهية عن القرآن من تلك الحقيقة.

ونحن نسوق هنا كلامهم في هذا الصدد، وسنورد عباراتهم على طولها دون تجزئة لتتضح الصورة أمام القارئ، ثم نعود إليها بالتحليل والنقد، لنرى أنهم -فيما تناولوه- يهدفون يقيناً إلى التشكيك في كون القرآن الكريم وحياً إلهياً، ليس للنبي -صلى الله عليه وسلم- فيه -كما قدمنا- إلا التلقي الواضح، والبلاغ الأمين، والبيان الشافي، وليكن عندهم بعد ذلك ما يكون من أن القرآن من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- أو من تعليم غيره.

يقول محرر مادة (القرآن)^(١) تحت عنوان: محمد -صلى الله عليه وسلم- والقرآن: «ارتبط القرآن الكريم بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- بحيث لا يمكننا فهم أي منهما دون فهم الآخر، ونظرة المسلمين السنة لا تعدو أن يكون الله -سبحانه وتعالى- هو المتحدث، وأن محمداً -صلى الله عليه وسلم- هو المتلقي، وأن جبريل هو الوسيط الموكل به توصيل كلام الله «الوحي» إلى محمد-صلى الله عليه وسلم- بصرف النظر عن المتكلم «جبريل» المتلقي، أو المخاطب «محمد-صلى الله عليه وسلم-» لكن تحليل النص القرآني يظهر لنا أن المسألة أكثر تعقيداً من ذلك.

إذ لا توجد إشارة قط إلى مصدر الوحي أو صيغة المتكلم في السور والآيات التي يظهر أنها أقدم ما نزل من القرآن الكريم، ففي بعض الآيات ليست هناك أدنى إشارة إلى أن هناك رسالة من الله -سبحانه وتعالى-، انظر على سبيل المثال الآيات من ١ إلى ١٠ من سورة الضحى^(٢)، وكذلك القارعة والتكاثر والعصر.

ونورد هنا الآيات الكريمة المشار إليها على التوالي: ﴿ وَالشَّمْسُ
وَضَحَلَّتْ إِذًا ﴾ ﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا تَدَلَّتْ ﴾ ﴿ وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَلَتْ ﴾ ﴿ وَاللَّيْلَ إِذَا

(١) لم يرد النص على محرر هذه المادة تحديداً فيما نقلناه من هذا الجزء من موجز دائرة المعارف الإسلامية، ولكن ورد التنويه في مقدمة هذا الجزء - وهو يشمل مادة القرآن وغيرها - أن الذي قام بتحريره هم: م. ب هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان.
(٢) كذا، والصواب: ((الشمس)).

يَعْشَلَهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَلَهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَلَهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ
وَمَا سَوَّلَهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴿الآيات.

وما جاء في سورة القارعة: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا
الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ الآيات.

وفي سورة التكاثر: ﴿الْهَلِكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ
﴿٢﴾﴾ الآيات، وفي سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ
﴿٢﴾﴾ الآيات، وفي بعض الآيات الأخرى يبدو وكأن محمداً -صلى الله عليه
وسلم- هو المتحدث كما في سورة التكويد: آية ١٥-٢١ وسورة الانشقاق: آية
١٦-١٩.

وفي المرحلة المدنية البكرة نجد في الآية ٩٧ من سورة البقرة ما يشير إلى
أن جبريل -عليه السلام- هو الموكول إليه الوحي: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا
لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾، واعتماداً على هذه الآية الكريمة وعدد
من الأحاديث الشريفة فسّر المفسرون الروح في الآية السابقة وفي سورة الشعراء
الآية ١٩٤ على أن المقصود بها هو جبريل -عليه السلام-.

وقد أوصى الرسول -صلى الله عليه وسلم- بكتابة القرآن -تدوينه
كتابة- وجمعه، وقد تم جزء من هذا العمل -كتابة النص القرآني وجمعه- أيام
محمد -صلى الله عليه وسلم- وبتوجيه منه، وتشير أحاديث الرسول -صلى
الله عليه وسلم- إلى توجيهاته فيما يتعلق بترتيب النص القرآني، وتتابع الآيات.

«راجع باب فضل القرآن في صحيح البخاري، وباب الصلاة في سنن أبي داود، كما تعرّض ابن سعد لهذه المسألة».

ومن غير المستبعد أن يكون محمد -صلى الله عليه وسلم- في بعض الأحيان يكتب بنفسه ما يوحى عليه من القرآن الكريم، ويمكن أن يفهم ذلك من الآية الكريمة التالية:

سورة الفرقان، الآيات ٤-٦: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آفِكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأُولِينَ اُكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٦﴾ لكن بشكل عام فمن المفهوم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان له كتابة خاصة في المرحلة المدنية يكتبون ما يمليه عليهم من الوحي^(١).

وعند تجميع النص القرآني في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- اقتضى الأمر بعض المراجعات والتغييرات كما يفهم من النص القرآني ذاته،

(١) الفقرة الأخيرة من كلام المخرج تصرح بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يكتب أحياناً بنفسه، وهذا مناقض للواقع التاريخي الذي لم يمار فيه الكفار، ولم يشك فيه أحد من أنه -صلى الله عليه وسلم- لم يتل قبل القرآن كتاباً أو يخطه بيمينه، وإذا لارتاب المبطلون. أما ما أراده الكاتب من وراء ذلك فهو التعريض بالمصدر البشري للقرآن بدليل استشهاده بدعوى الكفار بأن القرآن أساطير الأولين اكتتبها النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما كانت تملى عليه بكرة وأصيلاً.

ففي الآية ١٠٦ من سورة البقرة: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ وفي آية ١٠١ من سورة النحل: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١١﴾^(١).

ونتوقف مع هذا النص لنرى ما يهدف إليه: إشارة أو تصريحاً تجاه اعتقاد كاتبه في مصدر القرآن الكريم:

١- يقتضينا إنصاف أنفسنا أن نقول: إننا لا نقف ابتداءً موقف التبرص بالآخرين لتصييد الأخطاء، بل إننا ننحاز مباشرة إلى الصواب الذي ينطق به العقل عندما نجده من كلامهم أو كلام غيرهم، ومن هذا المنطلق: فإننا نتفق مع كاتب المقال فيما استهل به عبارته بقوله: «ارتبط القرآن الكريم...» إلى قوله: «... دون فهم الآخر».

ذلك أن نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- قد بدأت بالوحي في غار حراء: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] وعليه فلم يعرف العالم بشأن ما نزل من القرآن إلا من خلال محمد -صلى الله عليه وسلم- ولم تعرف نبوته -صلى الله عليه وسلم- إلا بما تلا وبلغ من القرآن الكريم، فكان أول تصريح له -صلى الله عليه وسلم- بشأن ما حدث هو ما جاءه به جبريل -عليه السلام-، قال ذلك لخديجة -رضي الله تعالى عنها- التي ذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وكان الحوار الذي قصته علينا أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في حديث بدء الوحي:

(١) موجز دائرة المعارف الإسلامية (مجموعة من المستشرقين): مجلد ٢٦ ص ٨١٦٦-٨١٦٨.

قالت: «أول ما بدئ به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التبعذ - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝۱ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝۲ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝۳ ﴾ فرجع بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله -صلى الله

عليه وسلم- خبر ما رأى فقال له ورقة: «هذا الناموس الذي نزل الله على موسى»...»^(١).

لكن الغمز والتلبيس والتشكيك يبدأ في كلام الكاتب بعد هذا الاستهلال مباشرة:
٢- أما الغمز:

فنتالعه في قول الكاتب: «ونظرة المسلمين السنة لا تعدو أن يكون الله سبحانه هو المتحدث...» إلى آخره.

فتقييد المسلمين في هذه العبارة بأنهم السنة تعطي انطباعاً بأن هناك مذاهب في الإسلام لا ترى في القرآن هذا الرأي من كونه وحي الله تعالى إلى رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- كما حدث في نظرة المسيحيين تجاه المسيح من اتساع خلافهم واحتدامه حول مفهوم وطبيعة عيسى -عليه السلام- إلى درجة التناقض وعدم التلاقي، وهذا ليس وارداً بأي حال في موقف جميع المسلمين من القرآن الكريم، فإجماعهم قائم على أن القرآن كله كلام الله تعالى نزل به جبريل -عليه السلام- على قلب محمد -صلى الله عليه وسلم-، وأن ما نقرؤه اليوم، وبعد اليوم إلى قيام الساعة هو بلفظه ما أنزله الله تعالى على النبي -صلى الله عليه وسلم- دون زيادة حرف أو نقصانه أو تغييره.

٣- وأما التشكيك: فيأتي بعد ذلك مباشرة:

وذلك في قول الكاتب: «لكن تحليل النص القرآني يظهر لنا أن المسألة أكثر تعقيداً من ذلك...» إلى آخره.

(١) الحديث أخرجه البخاري، ك / بدء الوحي، ب / ٣، ح / ٣.

ولنا مع الكاتب هنا وقفتان:

الوقفة الأولى:

نكشف فيها عن مغالطة واضحة باعثها الرغبة في إثبات ما افترضه من كون القرآن ليس وحياً، ذلك أن الكاتب يدعي أنه: لا توجد إشارة قط إلى مصدر الوحي أو صيغة المتكلم في أقدم السور نزولاً، وساق في هذا المجال سوراً مكية من أوائل ما نزل مثل: الشمس والقارعة والتكاثر والعصر، وذكر الآيات تفصيلاً للتدليل على ما يقول.

ونحن نعجب أشد العجب؛ لأن الكاتب - ولا أظنه إلا عامداً - ترك سوراً فيها التصريح بمنزل القرآن، وتعدد ضمائر العظمة للمتكلم سبحانه فيها، وهي أسبق في النزول من السور التي ذكرها، أعني بذلك سورة المزمل، وهي الثالثة في ترتيب النزول، وفيها يقول الحق - عز وجل -: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ۝١ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ١ - ٥] والقول الثقيل هو القرآن في قول جميع المفسرين.

وفي سورة المدثر، وهي الرابعة في النزول - وفق ما أورده السيوطي رحمه الله تعالى من رواية الثقات^(١) - يقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: ١ - ٣] والإنذار إنما

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٢٩/١ جلال الدين السيوطي، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط / أولى ١٤٠٧ هـ -

هو بالقرآن الذي نزل من قبل في سورة العلق، وجاء في آياتها كذلك قوله الله - سبحانه وتعالى - بضمير التكلم: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الآيات: ١١-٢٦].

يترك المؤلف ذلك ويذكر سور: (العصر) وهي الثانية عشر في التُّزول، و (الشمس) وهي السادسة والعشرون، و(القارعة) وهي الحادية والثلاثون.

الوقفة الثانية:

أن كلام الكاتب لا يصلح دليلاً على ما يريد الاستدلال عليه، ولا يصمد أمام أي نقد علمي جاد، فيما أن القرآن كله من مصدر واحد، أو أنه أبعاض متعددة المصادر، وهذا الأخير لم يقل به أحد، بل القرآن كله من معين واحد هو الوحي الإلهي.

ولقد صرحت آيات القرآن في مواضع كثيرة بأن منزله كله هو الله تعالى، وأنه حافظه إلى يوم القيامة، ونذكر هنا بعض هذه الآيات وليس كلها؛ خشية الإطالة:

ففي سورة الإنسان يقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ وفي سورة طه يقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [١١٣]، وفي سورة الحجر إخبار بأن الله - عز وجل - هو منزل القرآن المتعهد بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [٩].

فهل يعقل حتى يستقيم الأمر في ذهن كاتب المقال هذا أن يأتي التصريح في كل آية من آيات القرآن وعددها: ٦٢٣٦ آية بأن منزل القرآن هو الله، وأن الذي نزل به جبريل، وأن محمداً -صلى الله عليه وسلم- هو الملقى، وكيف تكون بلاغة القرآن وإعجازه عندما يصاغ الأمر على هذا النحو، وأترك للقارئ بعد ذلك أن يحكم على هذا المسلك العلمي للمستشرقين!

٤ - نأتي إلى الفقرة الأخيرة من كلام دائرة المعارف الذي نقلناه من قبل: والتي يقول فيها الكاتب: «وعند تجميع النص القرآني في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- اقتضى الأمر بعض المراجعات والتغييرات كما يفهم من النص القرآني ذاته».

الكاتب هنا يشير إلى قضية النسخ، ولكنه يستخدم عبارة: «المراجعة والتغيير» لیتوهم القارئ أن ذلك لم يكن يتم بوحى، وإنما من قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- لظروف اقتضت ذلك، وربما -بناءً على ما تقدم من كلامه في شأن مصدر القرآن - يرجع الضمائر في قوله: «ننسخ، نأت» وفي قوله: «بدلنا آية» إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-... وقد بينا من قبل ما يدل على أن القرآن بآياته وكلماته وحروفه من عند الله رب العالمين.

أما قضية النسخ في ذاتها: فلها حديث آخر ليس موضعه هذا البحث، ولكن في عجالة نقول: النسخ هو: رفع حكم شرعي سابق بخطاب شرعي متأخر عنه، والناسخ والمنسوخ كلاهما من عند الله تعالى، ليس للنبي -صلى الله عليه وسلم- إلا التلقي والبلاغ، وقد وقع النسخ في شريعة الإسلام كما وقع في الشرائع السابقة، فقد ورد أن آدم -عليه السلام- كان يزوج الأخ من أخته، وقد حرم ذلك في شريعة موسى -عليه السلام- وما بعدها، وليس هذا مجال التفصيل في هذا الأمر.

وباستعراض ما سبق: فإنه قد ظهر جلياً: أن الوحي ليس هو مصدر القرآن في رأي هؤلاء المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية، وهي من أهم دراساتهم عن الإسلام وأكثرها شيوعاً.

فماذا يكون مصدره عندهم بعد هذا الجهد - غير المشكور - الذي بذلوه في محاولة نزع صفة الوحي عنه زوراً وبهتاناً؟ لقد ادعوا في ذلك دعاوى باطلة، نوردها مقرونة بإبطالها ونقضها فيما يلي:

أولاً: دعوى أن مصدر القرآن الكريم النبي-صلى الله عليه وسلم- نفسه، ونقض هذه الدعوى:

المتتبع لموقف جموع المستشرقين من القرآن الكريم يجد أن محصلة العقيدة الاستشراقية في نهاية الأمر تجزم بأن القرآن الكريم من كلام محمد-صلى الله عليه وسلم- وأنه - أي القرآن - يمثل ثمرة معاناة محمد -صلى الله عليه وسلم- النفسية، ويعكس الصراع والتطور النفسي له^(١).

قال المستشرق الإنجليزي الدكتور (سنكلير تسدل) في كتابه: ميزان الحق ص ٣٧٢: «إذا اتفق المسلمون على أن القرآن من تأليف محمد، وكتب بالوحي؟؟ وليس كما يقولون: إنه أملاه عليه جبرائيل لكانت حجتهم أقوى»
أ.هـ.

وقال المستشرق الإنجليزي (جورج سيل) في كتابه: مقالة في الإسلام ص ١١٦: «ومما لا شك فيه، ولا ينبغي أن يختلف فيه اثنان أن محمداً هو في الحقيقة مصنف القرآن وأول واضعيه، وإن كان لا يبعد أن غيره أعانه عليه كما اتهمته العرب، لكنهم لشدة اختلافهم في تعيين الأشخاص الذين زعموا أنهم

(١) انظر: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي ص ٩٣ د. محمد محمد أبو ليلة، ط / أولى، دار النشر للجامعات، مصر

كانوا يعينونه، وَهَتَّ حجتهم، وعجزوا عن إثبات دعواهم، ولعل ذلك لأن محمداً -صلى الله عليه وسلم- كان أشد احتياطاً من أن يترك سبيلاً لكشف الأمر(١).هـ.

وقال صاحب ذيل (مقالة في الإسلام في تعليقه على قول (جورج سيل) في الصفحة المذكورة نفسها: «قال بعض العرب كما ذكره الزمخشري والبيضاوي في سورة ١٦: ١٠٥، ٢٥: ٥، ٦» (أعانه عليه جبر الرومي مولى عامر بن الحضرمي وكان قارئاً كاتباً، وقال الآخرون منهم: بل أعانه اثنان من الموالي يعملان السيوف بمكة، وكان لهما حظ من القراءة فكان محمد إذا مر بهما وقف، واستمع ما يقرآن ووعاه»^(١) .هـ.

وقال فللوزن^(٢): «ويبرز في القرآن شأن القدرة الإلهية تارة، وشأن العدل الإلهي تارة أخرى، وذلك بحسب ما كان يحس به النبي -صلى الله عليه وسلم- دون مراعاة للتوازن بين الطرفين، ولا يشعر محمد -صلى الله عليه وسلم- بما في ذلك من تناقض؛ لأنه لم يكن فيلسوفاً، ولا واضعاً لمذهب نظري في العقائد»^(٣).

ويعلق الأستاذ محمد قطب^(٤) على ما قاله فللوزن بعد نقله بقوله: «وبصرف النظر عن كون المؤلف ينسب القرآن إلى النبي -صلى الله عليه

(١) هذه النصوص نقلاً عن: ((المستشرقون والقرآن الكريم)) ص ٣٣٣ دكتور يوسف لقمان، رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة، جامعة الأزهر برقم ٧٩٣ لسنة ١٩٧٧م.

(٢) مستشرق ألماني بدأ دراسة اللاهوت لنقد التوراة ثم تخرج باللغات الشرقية على إيفالد في جوتنجن، من أهم كتبه: تاريخ اليهود، محمد في المدينة، تاريخ الدولة الأموية. انظر ترجمته كاملة في كتاب المستشرقون ٢/ ٧٢٤ نجيب العقيقي، ط / ثالثة، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.

(٣) تاريخ الدولة العربية: ص ٢، نقلاً عن ((المستشرقون والإسلام)) ص ١٥٦ محمد قطب.

(٤) في ((المستشرقون والإسلام)) ص ١٥٦.

وسلم- وهو أمر يشترك فيه المستشرقون جميعاً بطبيعة الحال، فإن المؤلف يضيف إلى ذلك أن هناك تناقضاً وعدم توازن في القرآن؛ لأنه يبرز شأن القدرة الإلهية تارة، وشأن العدل الإلهي تارة أخرى، ثم يردّ ذلك إلى الحالة النفسية الخاصة التي يكون عليها الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقت ((التأليف)) ثم يقول إن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يشعر بذلك التناقض؛ لأنه ليس فيلسوفاً ولا مفكراً عقائدياً!)) ١.هـ.

وقبل أن نأخذ في نقض هذه الدعوى نود أن نبين مدى استهانة أدعيائها بالبحث العلمي ومنهجه خاصة فيما يتعلق بما قاله صاحب: ((ذيل مقالة في الإسلام)) مما نقله عن الزمخشري من قوله: ((قال بعض العرب..)) إلى آخره، فقد تعمد الكاتب بتر كلام الزمخشري للإيهام بموافقة علي ما قاله المدّعون بأن محمداً -صلى الله عليه وسلم- تعلم القرآن من غيره.

فنص كلام الزمخشري: ((أرادوا بالبشر: غلاماً كان لحويطب بن عبدالعزى عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ وَبَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] قد أسلم وحسن إسلامه، اسمه ((عائش)) أو ((يعيش)) وكان صاحب كتب، وقيل: هو ((جبر)) غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي، وقيل: عبدان: ((جبر، ويسار)) كانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا مر وقف عليهما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه، فقيل لأحدهما، فقال: بل هو يعلمني))^(١).

والأمانة العلمية تقتضي أن نقول: إنه بعد طول عناء وصبر في بحث ما ذكره المفسرون حول هذه المسألة نجد أن التفاسير المسندة مثل الطبري وغيره قد اقتصررت فيما نقلته على عبارة: (فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا

(١) الكشاف للزمخشري: ٢ / ٣٤٤.

وقف عليهما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه) ولم تذكر عبارة: (فقليل لأحدهما، فقال: بل هو يعلمني).

ولسنا هنا بصدد مناقشة الرواية في إسنادها وتوثيقها، إذ إن الكاتب قد نقل عبارة الزمخشري دون غيره، بما فيها عبارة (بل هو يعلمني)، فحاكمناه إليها وقد أغفل الكاتب نقل هذه العبارة، وفي هذا ما يدل على استهانته بأمانة البحث العلمي من جهة، كما يرد الدعوى من أساسها من جهة أخرى، وعلى كل فإن المعول ليس على ذلك وحده كما سنبين.

والآن: إلى نقض هذه الدعوى:

بداية نقول: إن دعوى المستشرقين تلك دعوى كاذبة، وباطل مفضوح، لا يقبله عقل، ولا يؤيده نقل، ولا يقره واقع، لما يلي:

(أ) لو كان القرآن الكريم من كلام محمد-صلى الله عليه وسلم- لما حار العرب في أمره، ولما اختلفوا وتخبطت آراؤهم فيه، ولما ترددوا بين الشناء عليه - كما فعل الوليد بن المغيرة مما سبق ذكره - واتهامه بكونه أساطير الأولين تارة أخرى، بل كانوا أجمعوا أمرهم على أنه من كلام النبي-صلى الله عليه وسلم- وتعاملوا معه على ذلك، وَلَئِكَ نَا رَأَيْنَا أَنْ اعْتَرَضَهُمْ انْصَب تَارَةَ عَلَى الْقُرْآنِ، وتارة على كيفية إنزاله منجماً، وتارة على من أنزل عليه، وقد سبق بيان ذلك.

(ب) لو كان القرآن من إنشاء النبي-صلى الله عليه وسلم- لما عجز العرب عن معارضته، وفيهم الفصحاء والبلغاء مع أنه تحداهم أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، وقذف في وجوههم بقوة بهذا التحدي فعجزوا رغم حرصهم على معارضته وتكذيبه.

(ج) لو كان القرآن من كلام محمد-صلى الله عليه وسلم- للزم أن يكون قبل البعثة قارئاً كاتباً، ليس ذلك فحسب، ولكن علماً بكل قضايا المنهج

القرآني في: الاعتقاد، والتشريع، والأخلاق، والمعاملات، وأن يكون على معرفة بقصص السابقين بالدقة المتناهية التي لم يستطع الأعداء إيجاد ثغرة فيها، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبَيِّنَاتٍ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨] والواقع التاريخي ينطق بذلك.

(د) وفصل الكلام الذي يقطع قول كل مدع في هذا الباب أن هذا القرآن لو كان من كلام محمد -صلى الله عليه وسلم- لحرص على إثباته لنفسه، ولما تبرأ من كونه قائله، بل كان يرى في نسبه إليه عزا وشرفاً، وطريقاً للسيادة إن كان يرومها.

ولفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله تعالى - في بيان ذلك - كلام نفيس، نحرص على إثباته بلفظه؛ لما فيه: من وضوح الفكرة، ونصاعة الحجّة، وبلاغة العبارة، قال رحمه الله تعالى: «القرآن صريح في أنه لا صنعة فيه لمحمد -صلى الله عليه وسلم- ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه. والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمد.

في الحق إن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، وذلك أنها ليست من جنس الدعاوى فتحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع الإقرار الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، فأى مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة، ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة؟ نقول: أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخاً؟ على حين أنه

كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها ما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها، أو يسرقون منها ما خف حمله وغلّت قيمته وأُمنّت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى، ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة، أما أن أحداً ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأعلى ما تجود به قريحته، فهذا ما لم يلدّه الدهر بعد.

ولو أننا افترضناه افتراضاً لما عرفنا له تعليلاً معقولاً ولا شبه معقول، اللهم إلا شيئاً واحداً قد يحيك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في نسبه القرآن إلى الوحي الإلهي ما يعينه على استصلاح الناس باستيحاء طاعته عليهم، ونفاذ أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه لنفسه... وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه.

أما أنه فاسد في ذاته؛ فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه، والكلام المنسوب إلى الله تعالى، فلم تكن نسبه ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئاً، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه زائدة فيها شيئاً، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتها في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

وأما فساد هذا القياس من أساسه؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته، لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة، وأن سرّه وعلايته كانا سواء في دقة الصدق، وصرامة الحق في جليل الشؤون وحقيقتها، وأن ذلك كان أخص شمائله، وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه^(١).

على أن المتأمل في بقية تعليق صاحب «ذيل مقالة الإسلام» من ادعاء تعليم البعض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن يجد أنه ادعاء أشد سقوطاً وبطلاناً من سابقه.

فالذين تُسبب إليهم ذلك هم من الموالي أصحاب الحرف الدنيا، الذين لا علاقة لهم بفكر أو علم أو ثقافة، فضلاً عن عجمتهم التي هي بمنأى عن العربية في كلامها العادي، بله قمة الفصاحة التي جاءت بها لغة القرآن الكريم، فهم -والأمر كذلك- بمعزل عن المجال كلية، ولو افترضناه جدلاً، لكان لهم أحد مسلكين: إما أنهم كانوا يصنعون ذلك لأنفسهم، فبدلاً من أن يعلموا من يذهب بشرف النبوة دونهم كانوا يدعونها هم، ولن يستطيع أن يمنعهم من ذلك، وإما أنهم كانوا يعلنون أنهم أساتذة هذا النبي الذين علموه، ولم يُحدّث

(١) النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن): ص ٢١-٢٣ د. محمد عبدالله دراز، ط / إدارة إحياء التراث الإسلامي

بقطر ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

التاريخ بأي من الأمرين، فأبي منطق يستقيم في عقل عاقل أن يزعم بعد ذلك أحد أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- تلقى القرآن عن غيره.

ثانياً: دعوى أن مصدر القرآن الكريم البيئة الجاهلية الوثنية، ونقض

هذه الدعوى:

الأساس الذي بنى عليه المستشرقون موقفهم في هذه الدعوى وما قبلها هو: اعتقادهم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يطلب زعامة سياسية، وسيادة دنيوية وجد في نفسه مقوماتها، وأن ظروف النشأة في مكة كانت مواتية لذلك.

يرى المستشرق (جب) ^(١): «أن مكة كانت فيها حياة زاخرة بالتجارة والسياسة والدين، وأنه وجدت فيها زعامة وزعماء، وأنه وجد ظلم اجتماعي

(١) هو: ه. ا. جب مستشرق إنجليزي معاصر كانت له شهرة واسعة في حياته، وما زال يذكر بين أبرز المستشرقين المعاصرين، وكان عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وذلك يدل على تضلعه في اللغة العربية، ويدل من جهة أخرى على مدى إعجاب الناس به في وقته، ومدى إحسانهم الظن به. يسوق الأستاذ محمد قطب هذا التعريف به، ثم يقول: «وقيمته عندنا أنه صاحب اتجاه جديد في الاستشراق، الاتجاه الذي لا يأخذ الهجوم الشرس المتواصل منهجاً له للوصول إلى أهدافه، إنما هو المنهج الذي جاء ذكره في كتاب الله: ﴿ وَقَالَتْ طَافِقَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَيْتِبِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ٧٣ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴿٧٢﴾ [آل عمران: ٧٢ - ٧٣].

فهو لا يتظاهر بالحياد فحسب - فكلهم يدعون ذلك - إنما هو يزجي من المديح ما يريح أعصاب القارئ المسلم، فيظن أن الكاتب متعاطف معه مقدر - على الأقل - لبعض جوانب العظمة في دينه، فلا داعي لإساءة الظن به ابتداء، إنما الأولى إحسان الظن به، فإذا ألقى القارئ سلاح الحذر بتأثير هذا المديح المريح، دس له المستشرق ما يشاء من السموم، فيتشربها من لديه استعداد لا يتلاع الطعم، ويتأثر بها بقدر ما ألقى من سلاح الحذر، ويقدر ما انشרכת نفسه للطعم المسموم» ا. ه. من كتاب (المستشرقون والإسلام) ص ١٧٤ للأستاذ محمد قطب.

بين سكانها، وأن الرسول-صلى الله عليه وسلم- انطبعت في نفسه كل هذه الجوانب، وكان على وعي تام بها، وترى آثارها في حياته: في قرآنه وفي كفاحه إلى أن مات!

ويرى ((جب)) كذلك أن ثورة الرسول النفسية لم تبرز في صورة إصلاح اجتماعي، ولم يقيم بها على أنه مصلح للحياة المكية الاجتماعية، وإنما برزت في صورة دينية، وفي صورة أنه رسول؛ وذلك لأنه أراد أن يستغل قيم المقدسات الدينية بمكة في الزعامة، والرواج الاقتصادي! ومعارضة المكيين إياه - لذلك - كانت معارضة في الزعامة السياسية، وخشية على ازدهارهم الاقتصادي من أن يضعف لو قبلوا دعوته، ولم تكن - معارضتهم إياه - بسبب العقيدة والإيمان! وإلا فالقرآن نفسه يدل على أن فكرة الوحدانية - وهي الفكرة الأساسية في الإسلام - كانت معروفة في غربي الجزيرة العربية^(١).

بعد ذلك يمكن أن يكون البحث في دعوى رأن البيئة الجاهلية مصدر القرآن) مبنيا على جملة من المقدمات وضعها المستشرقون ليستنتجوا منها نتائج لا تفضي إليها تلك المقدمات.

لقد حاول المستشرقون أن يجعلوا من رسالة الإسلام امتداداً - مع بعض التهذيب - للحركة الدينية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية، ذلك أن مجتمع العرب - في نظرهم - قبل الإسلام كانت تتوافر فيه كل مقومات الحياة الدينية التي جاءت بها رسالة الإسلام من اعتقاد وتشريع وأخلاق.

(١) أورد ذلك الدكتور / محمد البهي - رحمه الله - في كتابه: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص: ٢٢٨، ٢٢٩.

ففي مجال الاعتقاد زعم هؤلاء أن العرب عرفوا التوحيد، ودانوا به، ولم يشركوا في عبادة الله، وفي مجال العبادات زعموا أن العرب كانوا يصلُّون، ويحجُّون ويعتمرون، وفي مجال الأخلاق زعموا أنهم اتصفوا بالعفة والشجاعة، والكرم وإغاثة الملهوف، وذلك هو ما جاء به الإسلام، فالأمر لا يعدو إذاً أن يكون القرآن نتاج هذه الحياة الراقية، وأن محمداً -صلى الله عليه وسلم- وهو أحد المكيين - لا يعدو أن يكون زعيماً استلهم حياة الجاهلية في عصره، وقدمها في كتابه الذي قال فيه إنه وحي، وإنه رسول.

يكرس هذا المعنى صاحب كتاب (الشعر الجاهلي) الذي تقوم فكرته على أن الحياة العربية الجاهلية لا تلمس من أشعار العرب الجاهليين التي يرى أنها منتحلة مكذوبة عليهم، بما تمثله من غلظة وشدة وعدم تحضر، وإنما تلمس من القرآن.

يقول المؤلف عن العرب في تلك الفترة: إنهم «لم يكونوا على غير دين، ولم يكونوا جهالاً ولا غلاظاً، ولم يكونوا في عزلة سياسية أو اقتصادية بالقياس إلى الأمم الأخرى.. كذلك يمثلهم القرآن، وإذا كانوا أصحاب علم ودين، وأصحاب ثروة وقوة وبأس، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة، متأثرة بها مؤثرة فيها، فما أحلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية، لا أمة جاهلة همجية، وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن ظهر في أمة جاهلة همجية»^(١).

(١) الشعر الجاهلي: ص ١٥، نقلاً عن: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ص ٢٣٤.

فالقرآن على ذلك في نظر المؤلف - وليس الشعر الجاهلي - هو
أصدق مرآة للعصر الجاهلي. هذا المعنى قرره من قبل (رينان)^(١).
يقول الدكتور/محمد عبد الله دراز: ففي مقال له أي (رينان) عن محمد
ومصادر الإسلام: ((عرض لنا صورة رائعة للجزيرة العربية في القرن السادس بعد
الميلاد، وبدلاً من هذا الشعب المشرك الذي تعرفه الدنيا، وضع لنا شعباً آخر
لم يعرف في حياته عن الله تعدداً ولا تنوعاً، وإنما عرفه كإله واحد لم يلد ولم
يولد، كما نجح هذا المستشرق في إبراز الذوق الأدبي الرفيع لهذا الشعب،
ونظرته الواقعية القوية، وفي إغفال سائر الصفات الأخرى التي لا تشرفه، وبدلاً
من هذه النزعة المادية الطاغية الفاسدة التي لا تلتفت إلى أي تفكير ينتمي إلى
الحقائق السامية، رسم لنا مجتمعاً في أوج حماسه الديني التقت فيه جميع
الديانات، وجميع الحضارات، بالإضافة إلى أن الدين كان شغله الشاغل، وعلى
هذا المنوال لا تعدو أن تكون رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - امتداداً
للحركة الدينية التي سارت في عصره دون أن يسبقها محمد في أي جديد^(٢).

والأمر بعد ذلك يحتاج إلى مناقشة هادئة:

ففي مجال التوحيد وعبادة الله وحده: أكان العرب في الجزيرة وما حولها
موحدين حقاً لا يشركون مع الله آلهة أخرى؟ وهل يستقيم هذا الادعاء وما

(١) أرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢م) فيلسوف فرنسي، ولد في مدينة تريجييه من أعمال بريتانيا بفرنسا، ودخل
المدارس اللاهوتية، حيث برز فيها، وتضلّع في اللغات الشرقية حتى صار من ثقافتها، ثم أخذ بمذهب حرية
الفكر، ورحل إلى المشرق وعني بالعقائد الإسلامية، من آثاره: تاريخ الأديان، وغيره من الكتب،
المستشرقون: ١/ ٢٠٢ نجيب العقيقي.

(٢) المدخل إلى دراسة القرآن الكريم: ص ١٢٩، ١٣٠ بتصرف، د. محمد عبدالله دراز، دار القلم ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

عرفه القاصي والداني من تعدد أصنامهم التي يعبدونها أفراداً بتعدد أشخاصهم، وأسماءً بتعدد قبائلهم، حتى وضع حول الكعبة ستون وثلاثمائة نصب، دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة عام الفتح وهي كذلك، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»^(١) كما ذكر القرآن - في مجال الإنكار عليهم - أسماء كبار أصنامهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الدَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣].

وإذا كان هؤلاء موحدين - كما يزعم رينان - ففيم كان استغرابهم، ونفورهم وغضبهم عندما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعوهم إلى كلمة التوحيد - لا إله إلا الله - فقالوا منكبين: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْأَخْرَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا آخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٥ - ٧].

(١) ذكر ذلك عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- فيما أخرجه عنه البخاري في صحيحه: ك / التفسير، ب: ﴿رَفَعَهُ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زُهُوقًا﴾ ح / ٤٧٢٠.

فهذه آيات ثلاث من سورة (ص) وهي مكية، تبين الأولى منها: كيف أنكروا دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى التوحيد، وتصرح الثانية بإصرارهم على الشرك والصبود في وجه دعوة التوحيد، وتفيد الثالثة تقادم عهدهم بهذا الشرك.

أفبعد هذا يزعم زاعم أن التوحيد كان دين أهل مكة، وأن القرآن جاء امتداداً لتقرير تلك العقيدة؟!!

وفي مجال العبادات يذكر القرآن الكريم نمطاً من تلك العبادة في صلاة المشركين التي كانت خليطاً من التصفيق والصفير والضجيج واللهو، يقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥]، فهل تلك هي الصلاة التي شرعها الإسلام في خشوعها وذكرها ودعائها وتجردها لله تعالى؟

وفي مجال الحج: كانت نداءات الشرك يضحج بها المشركون حول الكعبة، تعلن الكفر الصراح، فعن ابن عباس -رضي الله عنهم- قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «(ويلكم قَدِ قَدِ)»^(١)، فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت^(٢).

وفي مجال التشريع الذي يقوم عليه بناء المجتمع، وأساسه الأسرة، كان النكاح في الجاهلية في أكثر صورته ضروباً من الزنا الصريح، فجاء الإسلام فمحا

(١) أي: كفاكم هذا الكلام واقتصروا عليه ولا تزيدوا.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه: ك / الحج، ب / التلبية وصفتها ووقتها، ح / ١١٨٥.

كل صوره وأبطلها ولم يستبق منها إلا الصورة النقية المثلى التي شرعها الله تعالى لعباده.

فمن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: «أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر، كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها، وهن البغايا: كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جُمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتأطت به ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بُعث محمد -صلى الله عليه وسلم- بالحق هدم نكاح الجاهلية كله، إلا نكاح الناس اليوم»^(١).

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه: ك / النكاح، ب / من قال: لا نكاح إلا بولي، ح / ٥١٢٧.

هذا إلى ما حكاه القرآن من وأد الأطفال [الأنعام: ١٤٠] وابتزاز المهور وإرث النساء والأقارب كرهاً [النساء: ١٩-٢١]، وظلم اليتامى [النساء: ٢] والجشع وإهمال الفقراء وازدراء الضعفاء [الفجر: ١٧ - ٢٠].

أما الكرم والشجاعة والنجدة وبقية قيم المروءة العربية المشهورة، فلم يكن منطلقها إيماناً أو ديناً كما يزعم المستشرقون، وإنما كانت ضرباً من المباهاة والتفاخر؛ لاستجلاب الثناء وحسن السمعة والذكر، وإلا فبجانبها كان الظلم والبغي والعدوان كما مر.

كانت تلك حياتهم في مجالاتها المذكورة، فجاء القرآن فدعا إلى: نقاء التوحيد، وسلامة العبادة، وعدالة التشريع، وطهارة الأخلاق.

أبعد هذا كله يقال: إن البيئة الوثنية كانت مصدراً للقرآن في: العقيدة والتشريع والأخلاق؟ فهل يُخرج الحنظل شهداً، أو تنبت الجلامد ثمراً؟!

ثالثاً: دعوى أن مصدر القرآن الكريم هم الحنفاء، ونقض
هذه الدعوى:

ما معنى الحنيفية التي ينسب إليها الحنفاء؟

مادة الكلمة (ح ن ف) تدل على الميل، وعليه فالحنيف مطلقاً هو:
المائل من شرٍ إلى خير، أو من خيرٍ إلى شر، ومنه أُخِذَ الحَنَفُ، وحنَفَ: مال،
والحنيف: المسلم الذي يتحنف عن الأديان، أي يميل إلى الحق، وقيل: هو من
أسلم في أمر الله فلم يَلْتَوِ في شيء، قال أبو عبيدة في قول الله -عز وجل-:
﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^ط قال: من كان على دين إبراهيم فهو
حنيف عند العرب، وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على
دين إبراهيم، فلما جاء الإسلام سمو المسلم: حنيفاً^(١).

هذا هو معنى الكلمة في الإسلام، وإذا كان كل مسلم حنيفاً فإن
التخصيص في التسمية لم تعد له ضرورة، بل هي صفة تذكر عند تعداد ما عليه
المسلم من استقامة في منهجه.

أما الحنفاء إذا ذكروا في مضمار البحث التاريخي فهم أعداد متفرقون من
الناس مالوا عن الوثنية وعبادة الأصنام إلى التوحيد، ولم تنتظمهم بعد ذلك
شريعة واحدة، بل كان ظهورهم في أماكن مختلفة، وفي أزمان متباعدة: فظهروا
في اليمن متأثرين بمبادئ التوحيد التي حملتها إليهم اليهودية والنصرانية...
وظهروا في الجزيرة العربية امتداداً لدعوة أنبياء الله إبراهيم وابنه إسماعيل -
عليهما السلام - فبقوا محافظين على شيء من تراث إبراهيم

(١) لسان العرب: لابن منظور، مادة: ((حنف)).

-عليه السلام- من دعوة إلى الوجدانية ونبد لعبادة الأصنام، والإقرار بالبعث والنشور، والحشر وتبشير المؤمنين بالجنة، وتخويف الكافرين من النار، والابتعاد عن الخمر وواد البنات وسيئ الأخلاق^(١).

ومن أشهر الحنفاء الذين ظهروا في جزيرة العرب قبل البعثة (قس بن ساعدة الإيادي) كان يعظ الناس في أنديتهم، ويدعوهم إلى ما هو عليه من دين إبراهيم -عليه السلام-، خطب يوماً في سوق عكاظ^(٢) فكان مما قاله: «تبا لأرباب الغفلة، ليصلحن العامل عمله، وليفقدن الآمل أمله، كلا، بل هو إله واحد، وليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وأمات وأحيا، وخلق الذكر والأنثى، ربُّ الآخرة والأولى، أما بعد: فيا معشر إياد، أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ وأين العليل والعواد؟ كل له معاد، يقسم قس برب العباد، وساطع المهاد، لتحشرن على الانفراد في يوم التناد، إذا نفخ في الصور، ونقر في الناقور، وأشرفت الأرض، ووعظ الواعظ، فانتبذ القانط، وأبصر اللاخط، فويل لمن صدف عن الحق الأشهر، والنور الأزهر، والعرض الأكبر، في يوم الفصل، وميزان العدل، إذا حكم القدير، وشهد النذير، وظهر التقصير، ففريق في الجنة وفريق في السعير»^(٣).

وخطب يوماً فيه كذلك على جمل أحمر، فقال: «يا معشر الناس اجتمعوا فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، وقولوا وإذا قلتهم فاصدقوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات،

(١) آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره: ١ / ٢٦٥.

(٢) عكاظ: سوق من أسواق العرب قرب مكة، كانوا يجتمعون بها كل سنة، فيقيمون شهراً يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون، فلما جاء الإسلام هدم ذلك. لسان العرب، مادة: ((عكظ)).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير: ٢ / ٢٣٣، ط / دار الفكر العربي.

وأحياء وأموات، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهـر، وبحار تزخر، وضوء وظلام، وليل وأيام، وبرّ وآثام، إن في السماء خبراً، وإن في الأرض عبراً.. إلى أن قال: يا أيها الناس: إن الله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه، وهذا زمانه وأوانه^(١).

هذه الدعوة التي دعا إليها هؤلاء الذين أرقهم ضلال الناس وجهلهم، فأرادوا أن ينأوا بأنفسهم عنها إلى ما كان من دين إبراهيم -عليه السلام- هي التي جعلت المستشرقين يعتقدون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أخذ منهم الوحي وكانوا مصدره فيما جاء به من القرآن.

ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين منهم (تسدال) و(مستر كانون رسل)^(٢) وهم في ذلك يُغفلون من الحقائق التاريخية والملابسات ما يفقدهم أي أساس أو سند في دعواهم، ويجعلها مجرد اتهام - باعثة الهوى - لا يستند إلى دليل، ونستطيع أن نقرر ذلك فيما يلي:

(أ) لم يثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جلس إلى هؤلاء أو تعلّم منهم، وإذا كان هناك لقاء ببعضهم، كورقة بن نوفل -الذي كان قد تنصر - فهو لقاء عابر، سجلت الروايات ما حدث فيه، وذلك عندما ذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- إليه بصحبة زوجته خديجة -رضي الله عنها- لإخباره بما كان من شأن الوحي، وقد اعترف له ورقة بالنبوة والرسالة، ولم يجلس منه حينها مجلس المعلم ولم يقل له: تلك آثار الحنيفية التي دعونا إليها، أو أن الرسالة ثمرتها.

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٢٣٤.

(٢) راجع: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: ١ / ٢٦٣.

(ب) كما أن هؤلاء الحنفاء أنفسهم - مع دعوتهم تلك - كانوا يتطلعون إلى نبي يبعث - فيجدد دين إبراهيم عليه السلام- ليتبعوه، ويسيروا معه على هذا الدين الحق، الذي يهديهم هذا النبي إليه بإذن الله تعالى، كما ورد قريباً في موعظة قس.

(ج) هناك فرق كبير بين ما ورد في عظات هؤلاء الحنفاء للناس في أمر الاستدلال بالخلق على الخالق، والتوجيه إلى العمل الصالح، والاستعداد للموت والحشر، وبين المنهج الكامل الذي جاء به الإسلام في عقيدة التوحيد وأسسها، وتقرير العبادات وأركانها وصفاتها، والمعاملات ومنطقاتها، والأخلاق ومقوماتها، والزواج وحدودها، والموت والقيامة، وما بعدهما من الجزاء والحساب والجنة والنار، ذلك الدين القيم الكامل الحق.

وتمام القول في ذلك: أن من أدرك الإسلام منهم فأسلم، وهو ورقة بن نوفل، قد تبع النبي -صلى الله عليه وسلم- مصداقاً، ولم يجلس منه مجلس المعلم، ولم يدع أن تلك الرسالة ثمرة تعاليمه هو وأضرابه من الحنفاء، وإنما تمنى أن يمتد به العمر عند معاناة النبي -صلى الله عليه وسلم- من قومه، ليكون في نصرته.

كما ورد -في سياق حديث عائشة رضي الله عنها- من قول ورقة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: «هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أو مخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط

بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة بن نوفل أن توفي»^(١).

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- يرجح موت ورقة بعد ذلك بقليل كما يدل عليه «ثم لم ينشب»: «أي لم يتعلق بشيء من الأمور حتى مات»^(٢).
فأي منهج علمي - والأمر كذلك - يقرر في أدنى قدر من الثقة أن فكر الحنفاء كان مصدر القرآن، أو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخذه عنهم... هذا في ميزان الحق والعلم لا يستقيم!

رابعاً: دعوى أن مصدر القرآن الكريم اليهودية والنصرانية، ونقض هذه الدعوى:

كان من المفترض أن نفرّد كلا من جانبي هذه الدعوى بمسألة، لكننا عدلنا عن ذلك؛ لأن ادعاء المستشرقين في هذا الصدد واحد، وهو كون القرآن منتحلاً من اليهودية والنصرانية، والرد على هذا الادعاء واحد وإن اختلفت بعض التفاصيل.

يزعم المستشرقون أن مصدر القرآن الكريم: هو اليهودية والنصرانية، وأنه في هذا الاستمداد قد جمع بين كتب اليهود والنصارى (التوراة والإنجيل) وبين التراث الذي خلفه علماؤهم، وقد ورد التصريح بذلك فيما كتبوه.
يقول جولدزيهر (١٨٥٠-١٩٢١م)^(٣) في سياق تشكيكه في مصدر القرآن الكريم من خلال تعدد القراءات، وأن القرآن ليس له نص واحد مع كثرة

(١) صحيح البخاري: ك / بدء الوحي، ب / ٣، ح / ٣.

(٢) فتح الباري: ١ / ٢٧، ط / دار المعرفة.

(٣) مستشرق مجري تخرج باللغات السامية على كبار أساتذتها في بودابست لبيزج وبرلين وليدن، ولما نُبّه ذكره عين أستاذاً محاضراً في كلية العلوم بجامعة بودابست سنة ١٨٧٣م، ثم أستاذ كرسي سنة ١٩٠٦م، من

المحاولات التي لم يحالفها التوفيق، يقول ما نصه: ((في آية ٥٤ من سورة البقرة يدور الحديث حول غضب موسى حين علم بصنع بني إسرائيل عجلاً من ذهب وعبادتهم إياه، فهو يقول: ﴿يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَمُ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ أي فليقتل بعضكم بعضاً، أو بالمعنى الحرفي للنص: فاقتلوا أنفسكم بأنفسكم، وهذا ينطبق في الواقع على ما جاء في سفر الخروج فصل ٣٢ فصلة ٢٧ الذي هو مصدر الكلمات القرآنية))^(١).

ويقول في موضع آخر في تعميم يشمل الإسلام: ((وكما تقدم تعاليم الإسلام، حتى في مرحلته البدائية صورة من مذهبي الانتخاب والمزج (من اليهودية والنصرانية وديانة الفرس وغيرها) كذلك عملت آثار أجنبية من التجارب العلمية النافذة من المحيط الخارجي في تنمية ما جد بعد ذلك من المسائل))^(٢).

كما زعم نفس الزعم المستشرقون: (تسدال)، (ماسيه)، (أندريه)، (لامنر)^(٣).

مؤلفاته: العقيدة والشريعة في الإسلام، والأساطير عند اليهود، وغيرها الكثير، المستشرقون: ٣ / ٩٠٦ نجيب العقيلي.

(١) مذاهب التفسير الإسلامي: ص ١٠ جولدزهر، ط: دار اقرأ، ط / الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧١.

(٣) انظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: ١ / ٢٨٩، ٣٣٥.

ويقول المستشرق الألماني «شاخت» المولود ١٩٠٢م^(١) - موسعاً دائرة الاتهام في انتحال القرآن من غيره- تحت عنوان: «محمد والقرآن» ما نصه: «إن محمداً قد ظهر في مكة كمصلح ديني، وأنه احتج بشدة على كفار مكة من أهل مكة واعتبروه كمجرد كاهن، أو عراف آخر، وأنه بسبب قوة شخصيته قد دُعي إلى المدينة في عام ٦٢٢م كحكم في نزاع قبلي بين أهل المدينة، وأنه كالنبي قد أصبح قائداً ومشرعاً، يحكم مجتمعاً جديداً على أساس ديني، وأن محمداً قد اقتبس من اليهود في المدينة كثيراً من الأحكام، إن روايات جمع القرآن ملفقة، لَقَّهَها الفقهاء؛ وأصول الفقه وكذلك التشريعات الإسلامية منتحلة من القانون الروماني، والقانون البيزنطي، وقوانين الكنائس الشرقية، ومن التعاليم التلمودية، وأقوال الأحرار، ومن القانون الساساني. كل هذه القوانين والتعاليم والقواعد تَشَكَّلَ منها القانون الديني للإسلام»^(٢).

هذه هي الدعوى التي يدعيها المستشرقون ومن لف لفهم، وهي دعوى كاذبة في أصلها، مغرصة في هدفها، زائفة في شواهدها، منقوضة في كل جوانبها.

وقبل أن نخوض في الرد عليها يجب أن نحدد وجهة البحث في المسألة من أصلها ببيان علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة (التوراة والإنجيل).

(١) تصلح: جوزيف شاخت، تخرج في جامعة برسلا وليبيج، وعين أستاذاً في جامعة فرايبورج ١٩٢٧م، وفي جامعة كوتسبرج ١٩٣٢م، وفي الجامعة المصرية ١٩٣٤م. المستشرقون: ٨٠٣/٢ نجيب العقيقي.

(٢) مقدمة للشرعية الإسلامية ص ٢٠، ٢١، نقلاً عن كتاب: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي. حاشية ص: ١٠٣.

تتمثل علاقة القرآن بما سبقه من الكتب، وفي مقدمتها (التوراة والإنجيل) في ثلاثة جوانب:

الجانب الأول: التصديق لما جاء فيها من أصول الإيمان، وأصول الشرائع التي لم تمتد إليها يد التحريف؛ لأن أصل الدين واحد، فلا يعتبر التشابه هنا دليلاً على أخذ القرآن مما قبله، بل هي أصول واحدة تواترت عليها الكتب.

الجانب الثاني: الهيمنة، وهي بمعنى: الشهادة والحفظ والرقابة^(١) وهي هنا تعني الحكم على ما في هذه الكتب من حيث النسخ أو الإحكام، ونحو ذلك، وفي تقرير الأمرين معاً يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في شرح الآية مبيناً كنه العلاقة في الجانبين: «وقد أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيد لبعض ما في الشرائع مقرر له، من كل حكم كانت مصلحته كلية لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مصدق، أي محقق ومقرر، وهو أيضاً مبطل لبعض ما في الشرائع السالفة، وناسخ لأحكام

(١) لسان العرب، مادة: ((همن)).

كثيرة من كل ما كانت مصالحة جزئية مؤقتة مراعى فيها أحوال أقوام خاصة^(١).

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن هذا كله فيما لم تتناوله يد التحريف في هذه الكتب من أتباع النبيين الذين استحفظوا عليها فلم يحفظوها، وما أكثر ما بدلوا وغيروا فيها.

كما أنه ليس من قبيل استباق الأمور، أو المصادرة على النتائج أن نؤكد حقيقة كون القرآن كله معجزاً محكماً متقناً لا يعتره أدنى خلل، وتلك قضية قامت عليها أدلة الإعجاز، ولا تحتاج إلى دليل وراءه، والغرض من هذا التأكيد بيان أن ميزان الحكم القرآني على تلك العلاقة بينه وبين الكتب السابقة ميزان عدلٍ واحدٍ لا يتغير.

الجانب الثالث: من علاقة القرآن بما سبقه من الكتب: كشف ما فعله أهل الكتاب في شأن رسلهم، وما أجرموه في حقهم وحق كتبهم، وهذا الجانب هو موضوع الحديث، وهو الفيصل في نقض دعوى المستشرقين انتحال القرآن من اليهودية والنصرانية.

لقد سجل عليهم القرآن الكريم، وكشف من أفعالهم ما يلي:

١ - كتمانهم الحق في كتبهم:

(١) التحرير والتنوير: ٦ / ٢٢١ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط / دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] والمراد بكتمان الحق في هذه الآية هو كتمان نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- التي نوه بها في كتبهم، وقد مر تفصيل ذلك في المبحث الثاني عند بيان موقف اليهود من القرآن الكريم.

٢- تحريفهم لتلك الكتب بتغيير ما فيها من أحكام:

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

فمما غيروه مما يوافق أهواءهم حد الزنا، وكانوا يتآمرون فيما بينهم: إن حكم النبي-صلى الله عليه وسلم- بما يوافق ما غيروه قبلوه، وإلا ردوه، وهذا معنى: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾. أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما-: «أن اليهود جاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع

يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم...» الحديث^(١).

ولا يقال بأن الذي أرشد النبي-صلى الله عليه وسلم- إلى ذلك عبد الله ابن سلام، فالوحي هو الذي جعله-صلى الله عليه وسلم- يسألهم عن حكم الزنى في التوراة، لما يعلم من كذبهم، وإنما ساعد عبد الله بن سلام-رضي الله عنه- في تحديد موضع عقوبة الرجم في التوراة.

٣- إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَرُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴿٨٥﴾ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٤ - ٨٥].

قال الشوكاني - رحمه الله تعالى - : «قال المفسرون: كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وفداء

(١) صحيح البخاري: ك / المناقب، ب / قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ ح /

أسراهم، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء، فوبخهم الله على ذلك بقوله: ﴿

أَفْتَوْمُنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾^(١).

٤- نبذهم الكتاب كله وراء ظهورهم عناداً في القرآن:

قال الله تعالى: ﴿

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١١) [البقرة: ١٠١].

والمعنى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جاء مصداقاً بنبوة موسى -عليه السلام-، وبإنزال التوراة عليه، ولما كانت التوراة مبشرة بمقدم محمد -صلى الله عليه وسلم- فإن مجرد جحيثه وبعثه -صلى الله عليه وسلم- هو تصديق لما معهم من التوراة في ذلك.

أما قوله: ((نبذ فريق...)) فهو تمثيل لتركهم وإعراضهم عن كتاب الله بمثل ما يرمي به وراء الظهر: استغناءً عنه، وقلة التفات إليه، والكتاب الذي نبذوه هو التوراة؛ لأن النبذ لا يعقل إلا فيما تمسكوا به أولاً، وأما إذا لم يلتفتوا إليه فلا يقال إنهم نبذوه، فإن قيل: كيف يصح منهم ذلك؟ فالجواب: أنه لما كانت التوراة دالة على نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- لما فيها من نعتة وصفته عدلوا عن التصديق بذلك فيها، فكانوا نابذين لها^(٢).

(١) فتح القدير: ١ / ١٧٣ محمد بن علي الشوكاني، دار الوفاء، ط / أولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

(٢) يراجع: التفسير الكبير: ٣ / ٢١٨ فخر الدين الرازي، ط / دار الفكر، ط / الثالثة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٥- تلبيسهم الحق بالباطل وكتمانهم الحق:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧١﴾ [آل عمران: ٧١].

قال القاسمي - رحمه الله تعالى - في بيان معنى الآية: «أي تسترون الحق المنزل بتمويهاتكم الباطلة» وتكتمون الحق «أي الذي لا يقبل تمويهاً ولا تحريفاً» وأنتم تعلمون «أي عالمين بما تكتمونه من حقيقته، وقد كانوا يعلمون ما في التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونبوته، ويلبسون على الناس في ذلك كدأبهم في غيره»^(١).

٦- اختلافهم فيما بينهم حول ما عليه كل منهم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ اللَّصْرِيُّ عَلَى شَيْءٍ
وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾
[البقرة: ١١٣].

٧- تسجيل السيرة الطاهرة، ورفع المكانة لأنبياء الله
تعالى رداً على ما ألصقه بهم أهل الكتاب من القبائح -
حاشاهم -:

تعتبر قصص الأنبياء وسيرهم الإطار العام الذي ادعى المستشرقون من خلاله أن القرآن أخذ من كتب اليهود والنصارى، وذلك للتشابه في الأحداث الواردة فيها، كقصة: ابني آدم، وقصة إبراهيم وإنقاذه من نار النمرود، وقصة

(١) محاسن التأويل: ٢ / ٧٥ جمال الدين القاسمي، ط / مؤسسة التاريخ العربي، ط / أولى ١٤١٥ هـ -
١٩٩٥ م.

سليمان مع ملكة سبأ، وقصة هاروت وماروت، وقصة موسى -عليه السلام-^(١)، وأغفلوا التباين الكامل في الأساس الذي قامت عليه هذه القصص، وما أحاط بالأنبياء وسيرهم في هذه الكتب التي حرفوها، وفي القرآن الكريم الذي قص قصصهم بأليق ما يكون بهم: طهارة، ونقاء، وعدلاً، وصدقاً، واستقامة، وعزماً.

وسنذكر هنا ما جاء في القرآن الكريم حول مكانة الرسل عامة، مما يشهد لما قلناه، ثم بعد ذلك نذكر في شيء من التفصيل ما ألصقه اليهود والنصارى بالعديد من الأنبياء، وما أورده القرآن عن هؤلاء الأنبياء أنفسهم.

(أ) فرسل الله تعالى هم صفوة خلقه - صلوات الله عليهم جميعاً -

وخلاصة عبادته اصطفاهم لأداء رسالته إلى الخلق: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

(ب) هذا الاصطفاء مبني على علم الله تعالى بمن اصطفاهم وأهليتهم لأداء الرسالة: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(ج) دَعُوا جميعاً بأمر الله إلى عبادته وحده: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

(١) انظر: آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره: ١ / ٣٣٥.

(د) وحذروا من التهاون في أمر التوحيد ليحذر أتباعهم: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

(هـ) هم أئمة الهدى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

(و) سباقون إلى الخير تحذوهم خشية الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

(ز) صبروا على الإيذاء والتكذيب، وكانوا قدوة لأممهم في الثبات على الحق: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

(ح) جعل الله تعالى عاقبتهم الفوز والنصر: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ [الصفات: ١٧١-١٧٣].

(ط) وهم الجديرون بالسلام والتحية والتكريم: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصفات: ١٨١-١٨٢].

هذه بعض معالم مكانة الرسل كما جاءت في القرآن الكريم، جاءت آياتها في سياق قصصهم التي قص الله تعالى في كتابه العظيم.

فماذا كان من شأن هؤلاء الرسل فيما حرفة اليهود والنصارى في كتبهم التي زعم المستشرقون أنها مصدر القرآن الكريم؟

ندع النصوص تنطق بما أوردته هذه الكتب المحرفة، ننقلها مضطرين - ونستغفر الله كثيراً قبل وبعد وأثناء نقلها - حتى نتبين موقف القوم من أنبيائهم، ونشفعها بما ذكره القرآن في شأنهم حتى نتبين: أيّ الفريقين أهدى سبيلاً، وأقوم قيلاً؟ ثم بعدها ندع للقارئ أن يتساءل: كيف ساغ لمستشرق - والأمر كذلك - أن يقول ما قال؟

لقد أجرم هؤلاء في حق الأنبياء، فادعوا كذباً وبهتاناً - نستغفر الله من ذكره - أن منهم من أشرك بالله تعالى وعبد غيره، ومنهم من قتل غيره بالحيلة، ومنهم من زنا، وهذه افتراءاتهم نذكر بعضها من غير أن نحصيها عدا، لثقل حكايتها على النفس:

أولاً: افتروا أن هارون -عليه السلام- هو الذي صنع

العجل لبني إسرائيل وعبده معهم!

في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج، الفاصلة من ١-٦ ورد

ما يلي:

((١)) ورأى الشعب أن موسى قد أبطأ في النزول من الجبل فاجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا فإن ذلك الرجل موسى الذي أخرجنا من أرض مصر لا تعلم ماذا أصابه (٢) فقال لهم هارون:

انزعوا شنوف الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وأتوني بها (٣) فنزع
 جموع الشعب شنوف الذهب التي في آذانهم وأتوا بها هارون (٤) فأخذها من
 أيديهم وصورها في قالب وصنعها عجلاً مسبوكاً فقالوا: هذه آهتك يا إسرائيل
 التي أخرجتك من أرض مصر (٥) فلما رأى ذلك هارون بنى أمامه مذبحاً
 ونادى هارون وقال غداً عيد للرب (٦) فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقربوا
 ذبائح سلامة، وجلس الشعب يأكلون ويشربون ثم قاموا يلعبون».

هذا ما ذكره من استحفظوا على التوراة، فماذا قال القرآن الكريم في

شأن هارون-عليه السلام-:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ
 هُمْ أَوْلَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا
 قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ
 غَضَبًا أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ
 عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ
 فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا
 أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ
 لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ
 ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾
 وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ

الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ
حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴿طه: ٨٣ - ٩١﴾.

**ثانياً: افتروا أن داود -عليه السلام- زنى بزوجة رجل من
جنده، وتحايل على قتله للخلاص منه:**

في الفصل الحادي عشر من سفر الملوك الثاني: ((٢)) وكان عند المساء
أن قام داود عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى على السطح امرأة
تستحم وكانت المرأة جميلة جدا (٣) فأرسل داود وسأل عن المرأة فقبل له: هذه
بتشايح بنت أليعام امرأة أوريا الحثي (٤) فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت
عليه فدخل بها وتطهرت من نجاستها (٥) ورجعت إلى بيتها وحملت المرأة
فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنني حامل (٦) فأرسل إلى يوباب أن أرسل إلى
أوريا الحثي فأرسل يوباب أوريا إلى داود... إلى (١٤) فلما كان الصباح كتب
داود إلى يوباب كتاباً وأرسله بيد أوريا (١٥) وكتب في الكتاب قائلاً: وجهوا إلى
حيث يكون القتال شديداً وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت (١٦) فكان في
محاصرة يوباب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن فيه رجال البأس
(١٧) فخرج رجال المدينة فحاربوا يوباب فسقط بعض الشعب من عبيد داود
وقتل أوريا الحثي أيضاً)).

هذا ما ذكره المحرفون، فأين ذلك من صورة داود -عليه السلام- في
القرآن الكريم؟ فهو الذي يلهج بالتسبيح، ويسبح معه الكون: طيره وجماده:
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۗ يٰجِبَالُ اَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ۗ وَالنَّارُ لَهَا
الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: ١٠] ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۗ إِنَّهُ ۗ أَوَّابٌ ﴿٧﴾﴾

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
 مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَعَاتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ
 الْحِطَابِ ﴿٢٠﴾ [ص: ١٧ - ٢٠] فهل من الحكمة الزنى والقتل؟ وهو الذي
 أعطاه الله الخلافة وأمره أن يحكم بين الناس بالعدل:
 ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
 بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

**ثالثاً: افتروا أن لوطاً -عليه السلام- شرب الخمر، وزنى
 بابنتيه الواحدة بعد الأخرى وحملتا منه سفاحاً:**

في الفصل التاسع عشر من سفر التكوين من الفاصلة ٣٠ إلى آخر
 الفصل ورد ما يلي:

((٣٠)) وصعد لوط من صوعر وأقام في الجبل هو وابنتاه إذ خاف أن
 يقيم في صوعر فأقام في المغارة هو وابنتاه (٣١) فقالت الكبرى للصغرى: إن
 أبانا قد شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها (٣٢)
 تعالي نسقي أبانا خمراً ونضاجعه ونقيم من أئبنا نسلأ (٣٣) فسقتا أباهما خمراً
 تلك الليلة وجاءت الكبرى فضاغت أباهما ولم يعلم بنيامها ولا قيامها (٣٤)
 فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى هاأنذا ضاجعت أمس أبي فلنسقه خمراً
 الليلة أيضاً وتعالي أنت فضاغعيه لنقيم من أئبنا نسلأ (٣٥) فسقتا أباهما خمراً
 تلك الليلة أيضاً وقامت الصغرى فضاغعته ولم يعلم بنيامها ولا قيامها (٣٦)
 فحملت ابنتا لوط من أئبهما (٣٧) وولدت الكبرى ابناً وسمته موآب وهو أبو

الموآبيين إلى اليوم (٣٨) والصغرى أيضاً ولدت ابناً وسمته بنعمى وهو أبو بني عمون إلى اليوم)).

هذا ما ذكره الكذابون المزورون! فأين هذا مما ذكره الله تعالى عن نبيه لوط -عليه السلام- في القرآن الكريم، لقد آتاه الله تعالى الحكم والعلم:

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ ﴿٧٤﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وفضله في جملة من الرسل على العالمين:

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ [الأنعام: ٨٦]، أنكر على قومه الفاحشة: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ [العنكبوت: ٢٨]، ودافع عن طهارة الأخلاق حتى أراد قومه أن يخرجوه بسبب ذلك: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٦].

أبعد كل ما ذكرنا في هذا الباب يستقيم في عقل عاقل أن يكون ما حرفة اليهود والنصارى^(١) من كتبهم وأكاذيبهم -بزعم المستشرقين- مصدرًا للقرآن الكريم؟ أليس

(١) إنما ذكرنا النصارى هنا مع اليهود مع أن النقول السابقة من أسفار العهد القديم؛ لأن هذا القدر مسلم عند اليهود والنصارى، وكتب العهد العتيق مسلمة عند الفريقين. إظهار الحق: ٣ / ٨٣٧.

ذلك من قبيل العبث والمغالطة في منهج البحث العلمي؟ لا أجد بعد ذلك إلا أن
أهتف بما ينبغي في مثل هذا الموطن: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦).

المبحث الثالث

هل جاء المستشرقون بجديد

في محاولة نفي صبغة الوحي الإلهي عن القرآن الكريم؟

إذا استعرضنا ما سبق من دعاوى المستشرقين، وقلبنا فيها وجوه النظر، فإننا سنتبين على الفور أن ما أتوا به ما هو إلا أصداً تتردد - عبر القرون - لدعاوى كفار قريش، ومن عاصرهم من اليهود والنصارى في شأن القرآن الكريم، وشأن الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

فما محاولة المستشرقين في نفي صبغة الوحي الإلهي عن القرآن الكريم - تلك المحاولة التي أجلبوا من أجل إنجاحها بخيلهم ورجلهم، وأنفقوا من أجل تسويقها أموالهم - ما تلك المحاولة إلا صورة مما فعله الكفار سابقاً، ألبسوها ثوباً جديداً، سموه البحث العلمي، وألحوا في أن تقبلها العقول كرهاً رغم زيفها، فباءوا بفشل لا يقل عن فشل سابقهم من المكذبين، وبقي الحق الأبلج ينطق بأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - خاتم الرسل، وأن القرآن - وحي الله تعالى إليه - خاتم الكتب، وأن الإسلام خاتم الرسالات إلى البشرية كلها، ومن يتبع غيره ديناً فلن يقبل منه.

ذلك إجمال يحتاج إلى بعض التفصيل:

عندما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - وقابله كفار قريش بالتكذيب، وأزرهم اليهود ببحود الحق، ما كان حجتهم إلا أن قالوا: إن القرآن ليس وحياً من الله إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم تحبطوا بعد ذلك في تحديد مصدره، فتارة قالوا: إنه من عند محمد افتراه واختلقه، وملؤوا الأرض ضجيجاً بهذا الادعاء، وقد حكى القرآن مقولاتهم، وردّها.

وقد مر ذلك تفصيلاً فلا حاجة لإعادته، ولكننا نذكر فقط ببعض ما حكاه القرآن من تلك المقولات، فمنها ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصَدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّنْ قَدْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ [سبأ: ٤٣].

يعنون بكلامهم أن القرآن كذب مختلق أتى به محمد من عند نفسه، ونسبه إلى ربه، والدليل على أنهم يقصدون ذلك قوله تعالى في موضع آخر: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ ۗ مُفْتَرِيَاتٍ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣]. والمعنى: إن صحت دعواكم في كون القرآن من عند محمد -صلى الله عليه وسلم- فلماذا لا تأتون بمثله، وأنتم عرب فصحاء بلغاء؟

وتارة قالوا عن القرآن: إن محمداً -صلى الله عليه وسلم- تعلمه من غيره -كما ورد- في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]. وفي قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ أَفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٤].

هذا ما ادعاه الكفار في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهل أتى المستشرقون بجديد عندما أنكروا كون القرآن وحياً من الله تعالى؟ كلا، إنهم ذكروا نفس الدعاوى، وكرروا نفس الكلام.

أما الادعاء بأن القرآن من كلام النبي-صلى الله عليه وسلم- فلم يتجاوز ما قاله (تسدال) و(جرجس سال) و(فللوزن) ومحرووا دائرة المعارف الإسلامية وغيرهم في هذا الشأن قول كفار قريش، فأين الجديد في دعواهم؟ وأما الادعاء بأن محمداً-صلى الله عليه وسلم- قد تعلم القرآن من غيره، فلم يعد ما قاله المستشرقون قول كفار قريش كذلك، غير أنهم أخذوا في تفصيل مصادر القرآن - في زعمهم - فتارة ادعوا أن مصدره معطيات الحركة الدينية التي سادت الجزيرة العربية، كما قال (جب) و (رينان) وتلميذهما صاحب (الشعر الجاهلي).

وتارة افتروا أن مصدره الحنفاء كما زعم (تسدال) و (مستر كانون رسل) وغيرهم، وتارة ثالثة ادعوا أن مصدر القرآن هو مزيج من تعاليم اليهودية والنصرانية كما زعم (جولدزيهر) و(تسدال) و(ماسيه) و(أندريه) و(لامنز) و(شاخت) وغيرهم، وقد مر نقض ذلك كله، فما الجديد في قولهم؟ الواقع أنه ليس في دعوى هؤلاء أي جديد، فمنطلقهم واحد هو: التعصب وعداوة الحق، وهدفهم واحد هو: إهدار حجية رسالة الإسلام وعالميتها وكونها خاتمة بمحاولة إهدار حجية دستور تلك الرسالة وهو: القرآن الكريم بالتشكيك في مصدره.

إننا لا نجاوز الحقيقة عندما نقول: إن هؤلاء المستشرقين متطفلون في تلك الدعوى الباطلة على من سبقهم من الكفار، ولا نجاوز الحقيقة كذلك إذا قلنا: إن الكفار السابقين كانوا أكثر فطنة من هؤلاء المستشرقين، إذ إنهم -وقد عرفوا في قرارة أنفسهم أنهم على باطل، وأنهم معاندون للحق- قذفوا بدعواهم جملة، كأنها عبء يريدون الخلاص منه، كما فعل الوليد بن المغيرة عندما

حاصره وضيَّق عليه أبو جهل ليقول في القرآن قولاً يرضي قومه، فقال بعد معاناة وعبوس: «إن هذا إلا سحر يؤثر، يآثره محمد عن غيره».

أما هؤلاء المستشرقون، فإنهم أتوا بالدعوى نفسها، ولكنهم جعلوا يسوقون الأكاذيب تلو الأكاذيب لتأكيدهما، فما يزيدهم ما يقولون إلا تخبطاً وتناقضاً يدركه كل من يقرأ كلامهم.

ومجمل القول: أن هؤلاء وأولئك قد أسسوا بنيانهم على شفا جرف هارٍ، فاتحار بهم في هاوية العجز واليأس من أن ينالوا من هذا الدين القويم في رسوله الكريم، أو قرآنه المبين: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

الخاتمة: وفيها بيان

الأدلة القاطعة على كون القرآن الكريم من عند الله تعالى

الحق أن القرآن الكريم ليس في حاجة إلى إثبات كونه من عند الله -عز وجل-^(١) فحقيقة ذلك أوضح من أن تحتاج إلى دليل، وإلا لن يصح في الأذهان بعدها شيء، وعليه فكلامنا هنا في هذا الأمر من باب إبراء الذمة، وإقامة الحجّة، على نحو قول الله تعالى: ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

والحديث في هذه القضية نسوقه -بتوفيق الله- مركزاً محمداً على دعائم ثلاث، تتعاقب فيها أدلة العقل والنقل، ونعرضها فيما يلي:

أولاً: تأخر الوحي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع شدة الحاجة إليه:

وأبرز الأمثلة على ذلك ملابسات نزول الوحي في قصة الإفك، فقد أرجف المنافقون -أخزاهم الله- بحديث السوء عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- ورموها بالفاحشة، وهي أبعد

(١) ولا سيما وقد انهارت دعاوى الكفار والمستشرقين معاً في شأن مصدره.

نساء الأرض عنها، وكان ذلك في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق^(١) وشاع الحديث، ووقع فيه من وقع، وطال الأمر والناس يخوضون وأبطأ الوحي، واشتدت بالمسلمين المحنة حتى بلغت القلوب الحناجر، والني-صلى الله عليه وسلم- لا يستطيع إلا أن يقول: «إني لا أعلم عنها إلا خيراً» وهو أدرى الناس بطهارتها، والمؤمنون يرددون: «ما علمنا عليها من سوء».

ثم إن النبي -صلى الله عليه وسلم- من منطلق كونه بشراً وزوجاً أخذ بأسباب المشورة والسؤال والتحري الذي لم يكن باعثه الشك، كلا، وإنما التعليم للأمة ألا يتسرع المسلم في أمره، ولما مضى شهر بكامله أو يزيد وأصبح الأمر لا يحتمل التعليق، والوحي لا ينزل، ما زاد -صلى الله عليه وسلم- على أن قال للصدّيقة -رضي الله عنها-: «يا عائشة: إني قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه»^(٢).

وهنا في تلك اللحظة بعد هذا التمحيص والعناء ينزل الوحي ببراءة عائشة - رضي الله عنها- في قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أُمَّرٍ مِّنْهُمْ مَّا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ

(١) راجع القصة كاملة في الحديث الطويل الذي رواه البخاري في صحيحه: ك / التفسير، ب / ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ح / ٤٧٥٠، ومسلم في صحيحه: ك / التوبة، ب / حديث الإفك وقبول توبة القاذف، ح / ٢٧٧٠.

(٢) صحيح مسلم: ك / التوبة، ب / حديث الإفك، ح / ٢٧٧٠.

عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴿النور: ١١ - ١٣﴾ وما بعدها حتى آية [٢٦].

لقد لبث الوحي أكثر من شهر لا ينزل رغم شدة الحاجة إلى ما نزل من براءة أم المؤمنين -رضي الله عنها - أليس من البداهة - والأمر كذلك أن نقول: إن القرآن لو كان من كلام محمد -صلى الله عليه وسلم- لما ظل بعد هذا الاتهام الشنيع لوجه ساعة ألم، أو لحظة حرج يعيشها المسلمون معه، وكان قد بادر إلى تلاوة هذه الآيات ناسباً إياها إلى الوحي كما هو الشأن في القرآن كله فيحمي عرضه، ويدفع عن حرمة، ويقطع ألسنة الخراصين، ويرد كيد الكائدين؟

ولكنه -صلى الله عليه وسلم- ما كان ليفعل لسبب واضح، وهو: أن الأمر ليس إليه، والوحي ليس طوع أمره، والكلام ليس من عنده، والدفاع ليس دفاعه، وإنما كل ذلك من عند رب العالمين، وليس له فيه -صلى الله عليه وسلم- إلا البلاغ الذي لا يتجاوز ما أمر بتبليغه، وكان مما نزل عليه وبلغه قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عِنْدَهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

ثانياً: إتيان الوحي معاتباً له -صلى الله عليه وسلم- أو موجهاً إلى غير ما أراد:

والأمثلة على ذلك كثيرة يضيق المقام عن استيعابها، وهذه شواهد منها:

١- ما رواه البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره: أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأبي طالب: «يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال لهم أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ^(١).

فلو كان الأمر إليه -صلى الله عليه وسلم- وكان القرآن من كلامه لما عزم على أمر له فيه رغبة، ثم تلا على الناس النهي عنه، أو أنه ما كان قد قال ما قال

(١) صحيح البخاري: ك / الجنائز، ب / إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ح / ١٣٦٠.

أصلاً حتى لا يكون هذا العتاب المقرون بالنهاي، ولكنه -صلى الله عليه وسلم- إنما يُعاتب ويُؤمر ويُنهى من قبل ربه لا من قبيل نفسه.

٢- لما نصر الله تعالى رسوله في غزوة بدر، وأسر المسلمون عدداً كبيراً من المشركين، استشار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أصحابه في هؤلاء الأسرى: أقتلهم أم يقبل منهم الفداء؟ فأشار عمر -رضي الله عنه- بقتلهم، وأشار أبو بكر -رضي الله عنه- بأخذ الفداء، ومال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى رأي أبي بكر فأخذ منهم الفداء، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨] ^(١).

فلو كان -صلى الله عليه وسلم- يقول ما يقول من قبل نفسه لما سجل عليها هذا العتاب الشديد، حتى لا يهتم بتخطئة نفسه أو بتردده، أو أنه ما كان قد قبل بأخذ الفداء أصلاً، ولكنه القرآن ينزل من لدن حكيم حميد.

٣- كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً يكلم واحداً من ذوي المكانة في قريش من المشركين يرجو إسلامه، وبينما هو كذلك جاءه عبد الله بن أم مكتوم -وهو رجل أعمى- يسأله أن يعلمه ويرشده، فأعرض عنه عابساً؛ لأنه يشغله عما يطمع فيه من إسلام الرجل، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿

(١) راجع ما جاء عن ذلك فيما أخرجه الحاكم في المستدرک: ك / التفسير، ب / تفسير سورة الأنفال: ٢ / ٣٢٩، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح على شرط مسلم.

عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ
يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ [عبس: ١ - ١٠] ^(١).

أفيعقل أن يكون هذا الكلام صادراً عن قيل في شأنه، وعبت به،
كلا.. لا يقول ذلك عاقل، والأمثلة غير ذلك كثيرة.

ثالثاً: إعجاز القرآن البشر جميعاً عن الإتيان بمثله:

من الأدلة القاطعة - التي لا تقبل جدالاً - على كون القرآن كله وحياً من
عند الله تعالى: إعجازه البشر جميعاً - مع التحدي الدائم - أن يأتوا بمثله، أو
بسورة من مثله، وأوجه الإعجاز كثيرة ليس هذا مقام تعديدها، لكننا سنكتفي
هنا بوجهين يقطعان جدال كل مجادل:

أولهما: إعجازه في إخباره بالغيوب المستقبلية:

مما جاء في القرآن الكريم في مجال إعجاز البشر أنه أخبر بأمور تقع في
المستقبل، فجاءت كما أخبر، لم تتخلف أو تتغير، وهذا ما لا سبيل للبشر إليه
بجال، وذلك في القرآن كثير، لكننا سنورد أمثلة تفي بالغرض:

(أ) لعل أوضح ما يذكر في هذا المجال آيات التحدي بالقرآن ذاتها، فقد
أخبر الله تعالى أن الكفار سيعجزون عجزاً كاملاً عما ووجهوا به من التحدي
أن يأتوا بمثل القرآن، أو بسورة من مثله، وذلك في قوله الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِن
اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

(١) راجع ما جاء عن ذلك فيما أخرجه الحاكم في المستدرک: ك / التفسير، ب / تفسير سورة (عبس): ٢ /
٥١٤، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، قال الذهبي في التلخيص: هكذا رواه
يحيى بن سعيد الأموي مرفوعاً عن هشام بن عروة، وهو الصواب.

بِمِثْلِهِ ۚ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]. وقوله سبحانه:
﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ مِثْلِهِ ۚ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ
تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

فكان الأمر كما أخبر، يشهد بذلك الواقع، فلم يستطع عربي فضلاً عن
أعجمي أن يواجه هذا التحدي ويأتي بسورة من مثله.

(ب) إخبار القرآن بنصر المؤمنين، وإحقاق الحق، وهزيمة الكفار
واندحارهم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ
﴿٤٥﴾ [القمر: ٤٥] وقد نزلت هذه الآية في مكة، وحدث ما أخبرت به في المدينة
في (بدر) بدقة كانت مثار عجب عند الصحابة -رضي الله عنهم- أنفسهم،
حتى إن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لما نزلت هذه الآية قال: أي جمع
يهزم؟ أي جمع يغلب؟ فلما كان يوم بدر رأى رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾
فعرف تأويلها يومئذ^(١).

(ج) إخباره بانتصار الروم بعد هزيمتهم المنكرة أمام الفرس، وذلك في قوله
الله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَيُغْلَبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ
يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
﴿٥﴾ [الروم: ٢ - ٥].

(١) انظر في ذلك: تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير: ٤ / ٢٦٦، ط / دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣هـ.

وقد تحقق ذلك في أقل من عشر سنين، كما ورد في حديث ابن عباس - رضي الله عنهم^(١).

(د) إخباره بعدم تمني اليهود الموت، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الجمعة: ٦ - ٧]، وذلك متحقق دوماً، فلم يحدث - ولن يحدث - أن تمنى يهودي الموت - ولو ادعاءً - مناقضة للقرآن.

والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا المقام، ونقول: إن تلك أدلة لا تقبل الجدل على كون القرآن من عند الله تعالى؛ إذ ليس في مقدور أحد من البشر أن يتنبأ بشيء فيصدق كما قال تماماً ولو حدث ذلك مرة أو مرات على سبيل الافتراض، فإن ذلك لا يمكن أن يكون دائماً مطرداً.

ثاني الوجهين من أوجه الإعجاز: إخباره عن القرون السابقة والأمم البائدة:

لقد حفل القرآن الكريم بأخبار السابقين الأولين من الرسل مع أقوامهم، ومن غير الرسل، فحاء فيه قصص: آدم ونوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى وعيسى وغيرهم عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه، كما جاء فيه

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه، ك / التفسير، ب / ومن سورة الروم، ح / ٣١٩٣، وقال: حديث حسن صحيح غريب، كما أخرجه الحاكم في المستدرک: ك / التفسير، ب / تفسير سورة الروم: ٢ / ٤١٠ وصححه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

قصص ابني آدم، وأصحاب الكهف، وأصحاب السبت وأصحاب الجنة، وأصحاب الأخدود، ولقمان، وقارون، وغيرهم.

ولما كانت القسمة العقلية في معرفة الأحداث والوقائع وأخبارها في القرآن بالنسبة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو الذي جاء قومه بذلك - تقتضي واحداً من أربعة فروض، فإن تحقيق هذا الوجه من الإعجاز يقتضي عرض هذه الفروض على واقع الرسول -صلى الله عليه وسلم- ليتبين أن ما جاء به وحي من عند الله تعالى:

الفرض الأول: حضوره -صلى الله عليه وسلم- ومشاهدته أحداث هذه القصص، وإخباره بذلك عن معاينة، وذلك مردود بالواقع والتاريخ بداهة، وعلى الرغم من ذلك لفت القرآن النظر إلى هذا الأمر في أكثر من موضع، ففي قصة مريم يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] وفي قصة يوسف -عليه السلام- يقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وفي قصة موسى -عليه السلام- يقول: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

الفرض الثاني: أن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قرأ هذه القصص، وعرف أخبارها من مصادر مكتوبة، ثم نقلها إلى القرآن، وذلك مردود بأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وتلك حقيقة عرفها العرب، كما سجلها القرآن واحتج بها عليهم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبَيِّمِينَكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبِطُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

الفرض الثالث: أن يكون قد تعلمها تلقياً ومشافهة عن غيره، وذلك مردود بأنه لم يعرف عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه جلس إلى معلم أو تلقى عن أحد، ولما حاول المشركون ادعاء ذلك وقعوا في عثرة عمرهم، وسوءة فعلهم، فقد فضحهم القرآن؛ إذ نسبوا تعليمه إلى حدادٍ رومي لا يدري شيئاً عن أخبار السابقين، ولا يعرف شيئاً عن فصاحة اللغة العربية وبلاغتها: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

لم يبق إلا **الفرض الرابع والأخير**، وهو الحق الذي لا معدل عنه، وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أوحى إليه بها في جملة ما أوحى إليه من القرآن، فهي حق من حق، كما وصفها الله تعالى في أكثر من موضع: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣]، ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣].

وهذا كله في إطار الحق الذي هو شأن القرآن كله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢].

على هذه الدعائم القوية قام بحثنا في سوق الأدلة القاطعة التي يتعاقق فيها
صدق النقل وسلامة العقل مع عدم المعارض على كون القرآن من عند الله تعالى،
وهو خاتم الكتب أنزله الله تعالى على خاتم الرسل محمد -صلى الله عليه وسلم-.
فإذا ضمنا إلى ذلك نقض كلِّ الدعاوى الباطلة التي حاولت التشكيك في
تلك الحقيقة، ودحض كل الشبهات التي سيقَّت في محاولة لحجب نور الحق، فإن
دور البحث عندئذ يكون قد اكتمل فيما جعل لأجله، ويقف الجميع بعد هذا
الوضوح أمام خيارين لا ثالث لهما، ورد بهما قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقُلِ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].
ونتأسى بعد ذلك كله بقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي
مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾
[القصص: ٥٦]، ويقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ
كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس:
٩٩].

وبعد... فهذا ما منَّ الله تعالى به من الحديث في موضوع (مصدر القرآن
الكريم في رأي المستشرقين) عاجلنا فيه بقدر ما يقتضيه المقام، ويتسع له المجال ما
يلي:

(١) بيان موقع القرآن الكريم من رسالة الإسلام، وأنه يحتل منها موقع
القلب النابض، فهو يقرر حقيقة هذه الرسالة بإعجازه وهدايته، وهو الحامل للواء

نشرها في العالمين، بتأثيره القوي الصادق فيمن يسمعه، وأمثلة ذلك إسلام الجح
الغفير لمجرد سماع القرآن الكريم.

(٢) عرض موقف طوائف المكذبين للنبي-صلى الله عليه وسلم- من
القرآن في عصر النبوة، وفي هذا الصدد بدأنا بحديث القرآن نفسه عن مصدره،
وحسمه قضية كونه من عند الله تعالى لفظاً ومعنى ثم ثنينا بموقف كفار قريش من
القرآن وهو: التكذيب المضطرب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهم تارة
يتخبطون في الاتهامات التي يوجهونها للقرآن من أنه مفترى، أو أضغاث أحلام،
أو قول شاعر، وتارة يتكلفون الشطط في تسويغ موقفهم من القرآن كما فعل
الوليد بن المغيرة، وتارة يُقرّون بكونه منزلاً، ولكنهم يكفرون به مع ذلك
لكراهيتهم من أنزل عليه.

ثم بينا موقف أهل الكتاب من النبي-صلى الله عليه وسلم- وهو جحود
الحق وإنكاره رغم وجوده في كتبهم: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ
كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
﴿١٤٦﴾ [البقرة: ١٤٦].

(٣) دراسة موقف المستشرقين من مصدر القرآن الكريم، وقد بينا في هذا
الصدد أن موقفهم تأسس على رفضهم كون القرآن وحياً من الله إلى رسوله -
صلى الله عليه وسلم- ثم تعددت أقوالهم بعد ذلك في بيان مصدره من: كونه
كلام النبي-صلى الله عليه وسلم- أو: من نتاج البيئة الجاهلية الوثنية، التي زعموا
أنها كانت من الرقي، والتمدن الديني والاجتماعي بحيث أنتجت هذا القرآن، أو:
أن مصدره الحنفاء بفكرهم الديني الذي نزع إلى التوحيد والأخلاق الحميدة، أو:

أن مصدره مزيج من اليهودية والنصرانية، وختمنا كل دعوى بنقضها وهدمها عقلاً ونقلاً.

(٤) إيضاح أن المستشرقين فيما ادعوه بشأن القرآن لم يأتوا بجديد في هذا الشأن، وأن ما أوردوه هو نفس ما قاله كفار قريش ومن عاصرهم من أهل الكتاب في موقفهم من النبي-صلى الله عليه وسلم- لم يزيدوا على ذلك إلا تفصيلات في بيان مصدر القرآن الكريم أوقعتهم في تناقضات كشفت عن تعصبهم ضد الإسلام وكرهيتهم للحق.

(٥) عرض الأدلة القاطعة عقلاً ونقلاً على كون القرآن الكريم هو وحي الله تعالى إلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ليس للنبي-صلى الله عليه وسلم- فيه إلا التلقي الواضح، والبلاغ الأمين، والبيان الشافي.

أسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله بمنه وكرمه، ويجعله لبنة قوية في قلعة الدفاع عن هذا الكتاب المبارك الذي نفتديه بمهجنا وأرواحنا. ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ دَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى وسلم، وبارك وأنعم على سيد ولد آدم محمد بن عبد الله نبي الهدى والرحمة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

- آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره دراسة ونقد: د / عمر إبراهيم رضوان ط / دار طيبة، الأولى ١٤١٣هـ.
- الإتقان في علوم القرآن: للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١٠هـ، تحقيق/ مصطفى ديب البغا، الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- أسباب النزول: للإمام علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت ٤٦٨هـ.
- المدخل إلى دراسة القرآن الكريم: د. محمد عبدالله دراز، دار القلم ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- الإسلام عقيدة وشريعة: للإمام محمود شلتوت، ط / دار الشروق، السادسة ١٩٧٣م.
- إظهار الحق: للشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي ت ١٣٠٨هـ، ط / الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- البداية والنهاية: للإمام إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ، ط / دار الفكر العربي، الأولى ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.
- التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط / دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس.
- تفسير القرآن العظيم: للإمام إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ، ط / دار المعرفة بيروت ١٤٠٣هـ.
- التفسير الكبير: للإمام محمد بن عمر بن الحسين الرازي ت ٦٠٦هـ، ط / دار الفكر، الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- الجامع الصحيح: للإمام محمد بن عيسى الترمذي ت ٢٧٩هـ، ط / مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الثانية ١٣٩٥هـ.
- الجامع لأحكام القرآن: للإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ت ٦٧١هـ، ط / دار الغد العربي القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- سنن أبي داود: للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٢٧٥هـ، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد، ط / دار الفكر بيروت.
- السيرة النبوية: للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام ت ٢١٨هـ، ط / مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٤م.
- صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ، تحقيق / مصطفى ديب البغا، ط / دار ابن كثير اليمامة، الثالثة ١٤٠٧هـ.
- صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ت ٢٦١هـ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي، ط / دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- فتح القدير: للإمام محمد بن علي الشوكاني ت ١٢٥٠هـ، ط / دار الوفاء، الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي الحديث: د / محمد محمد البهي، ط / المكتبة الفيصلية مكة المكرمة، السادسة ١٩٧٣م.
- القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي: د / محمد محمد أبو ليلة، ط / دار النشر للجامعات مصر، الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للإمام علي بن أبي بكر الهيثمي ت ٨٠٧هـ، ط / دار الفكر بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- محاسن التأويل: للإمام محمد جمال الدين القاسمي ت ١٣٢٢هـ، ط / مؤسسة التاريخ العربي، الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- مذاهب التفسير الإسلامي: للمستشرق إجنسس جولد تسيهر ط / دار اقرأ بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ترجمة د / عبد الحليم النجار.
- المستدرك على الصحيحين: للإمام محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ت ٤٠٥ هـ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا، ط / دار الكتب العلمية، بيروت الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
- المستشرقون: نجيب العقيقي، ط / دار المعارف، الثالثة ١٩٦٥ م.
- المستشرقون والإسلام: محمد قطب، ط / مكتبة وهبة، الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- المستشرقون والقرآن الكريم: د/ يوسف لقمان، رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة، جامعة الأزهر برقم ٧٩٣ لسنة ١٩٧٧ م.
- مقال بعنوان (كشف مخططات التغريب) نشرته جريدة النور، القاهرة - العدد ٣٧٧ - الأربعاء ٥ محرم ١٤٠٩ هـ أغسطس ١٩٨٨ م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري ط أولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- النبأ العظيم: د / محمد عبد الله دراز، ط / دار إحياء التراث الإسلامي قطر ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

فهرس الموضوعات

- مقدمة البحث ١
- تمهيد في: موقع القرآن الكريم من رسالة الإسلام ٧
- أولاً: القرآن الكريم يقرر حقيقة رسالة النبي-صلى الله عليه وسلم-: ٨
- ثانياً: القرآن الكريم ونشر رسالة الإسلام ١٢
- المبحث الأول موقف طوائف المكذبين للنبي-صلى الله عليه وسلم- من القرآن (في عصر النبوة) ١٦
- تمهيد: حديث القرآن عن مصدره: ١٦
- أولاً: موقف كفار قريش ومن تبعهم من القرآن الكريم: ١٨
- ثانياً: موقف أهل الكتاب من اليهود والنصارى من القرآن الكريم: ٢٢
- المبحث الثاني موقف المستشرقين من مصدر القرآن الكريم ٢٧
- تمهيد: لماذا ركز المستشرقون هجومهم على مصدر القرآن الكريم؟ ٢٧
- المنطلق والغاية: ٢٨
- الوقفة الأولى: ٣٥
- الوقفة الثانية: ٣٦
- أولاً: دعوى أن مصدر القرآن الكريم النبي-صلى الله عليه وسلم- نفسه، ونقض هذه الدعوى: ٣٨
- ثالثاً: دعوى أن مصدر القرآن الكريم هم الحنفاء، ونقض هذه الدعوى: ٥٣
- ما معنى الحنيفية التي ينسب إليها الحنفاء؟ ٥٣
- رابعاً: دعوى أن مصدر القرآن الكريم اليهودية والنصرانية، ونقض هذه الدعوى: ٥٧

- ١ - كتمانهم الحق في كتبهم: ٦١
- ٢ - تحريفهم لتلك الكتب بتغيير ما فيها من أحكام: ٦٢
- ٣ - إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض: ٦٣
- ٤ - نبذهم الكتاب كله وراء ظهورهم عناداً في القرآن: ٦٤
- ٥ - تلييسهم الحق بالباطل وكتمانهم الحق: ٦٥
- ٦ - اختلافهم فيما بينهم حول ما عليه كل منهم: ٦٥
- ٧ - تسجيل السيرة الطاهرة ٦٥
- المبحث الثالث هل جاء المستشرقون بجديد في محاولة نفي صبغة الوحي
- الإلهي عن القرآن الكريم؟ ٧٤
- الخاتمة: وفيها بيان الأدلة القاطعة على كون القرآن الكريم من عند الله تعالى
- ٧٨
- أولاً: تأخر الوحي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع شدة الحاجة
- إليه: ٧٨
- ثانياً: إتيان الوحي معاتباً له - صلى الله عليه وسلم - أو موجهماً إلى غير ما
- أراد: ٨١
- ثالثاً: إعجاز القرآن البشر جميعاً عن الإتيان بمثله: ٨٣
- فهرس المصادر والمراجع ٩١
- فهرس الموضوعات ٩٤